

رحلة برنارد الحكيم إلى مصر وفلسطين عام (٨٦٧ - ٨٧٠م) / (٢٥٤ - ٢٥٧هـ)

(دراسة تاريخية نقدية)



إعداد

د / أحمد علي محمد السيد

مدرس تاريخ العصور الوسطى

بكلية الآداب جامعة الاسكندرية  
(فرع دمنهور)

**رحلة برنارد الحكيم إلى مصر وفلسطين**

**عام (٨٦٧ - ٨٧٠م) / (٢٥٤ - ٢٥٧هـ)**

**(دراسة تاريخية نقدية)**

شهد القرن الماضي نشاطاً واسعاً في مجال نشر نصوص الرحلات الأوروبية خلال فترة العصور الوسطى إلى الشرق العربي، فمنها ما نشر باللغات الحديثة كالإنجليزية والفرنسية تيسيراً للاطلاع أو بلغتها الأصلية اللاتينية أو غيرها حرصاً على الأصالة، وكانت رحلة برنارد قد لقيت اهتماما واضحاً بتقديمها غفلاً للقراء، فقد قام الباحث الألماني ريجنالد رورخت بحصر أربعة مخطوطات تضمنت نص الرحلة وكذلك خمسة إصدارات لها باللغة اللاتينية في الفترة السابقة على القرن المذكور، وخلاله تم نشر النص عدة مرات، لعل أهمها إصدار عام ١٨٤٨م. إذ قام «رايت. ت» بنشرها باللغة الإنجليزية بلا تحقيق (۱)، ثم نشر النص باللغة اللاتينية في عام ١٨٧٤م. متضمناً بعض الحواشي التي لم تشف من غليل (٢)، كذلك حرص سير أوبرى ستيورات في عام ١٨٨۹ م. على تضمين نص الرحلة في الموسوعة الضخمة «مجموعة نصوص رحلات حجاج فلسطين» وذلك باللغة الإنجليزية، ويلاحظ أنه حرص على عدم التدخل بإجراء أي تعديل في النص مكتفياً بترجمته حرفياً (۳). وفي القرن الحالي صدر آخر نشر النص الرحلة على يد «جون ولكنسون» في عام ۱۹۷۷م. وذلك في أولى مجموعاته عن الحجاج الأوروبيين إلى فلسطين التي تحمل مسمى «حجاج القدس قبل الحروب الصليبية (٤) »، وفيه قدم الناشر قليلاً من الإضافات المقتبسة من مخطوط ريمس RHEIMS وبعض الإيضاحات التي أدخلها من تلقاء نفسه وكذلك بعض التفسيرات في شكل هوامش اكتفت بتسليط أضواء على جزئيات ، إلا أن الباحث خلال دراسته فضل الارتكان الى النص الذي نشره سير أوبري ستيورات بصفته نصاً أساسياً لم يمسه إضافة أو تحريف مع الوضع في الاعتبار الإضافات اللاحقة.

Wright, T., Early Travels in Palestine, London 1848, pp. 23 - 41, (۱)

ولمعرفة المزيد عن مواضع حفظ المخطوطات الخاصة بالرحلة، والإصدارات المبكرة لها، وكذلك التعرف على جهود ناشري الرحلة في القرن الماضي بلغتها الأصلية واللغات الحديثة. راجع:

Ruhricht.,R. Chronologisches Verzeichniss der Auf die geographic des  
Heiligen Landes, Bezuglichen Literature Von 333 Bis 1878, Berlin 1890,  
2.17

Tobler, T., Molinier, A., (eds.) (٢)  
Itinera Hiero soly mitana, 2 vols., Publications de la Société de L'  
Orient Latin, Série Géographique 1,2, Geneva 1874. p.p. 307-20

Bernard The Wise, A. Pilgrimage to the Holy Places, 870. AD., In (۳)  
Palestine Pilgrims texts Society, Vol. III, London 1989, pp. 3-11

Bernard The Monk. A Journey to the Holy Places and Babylon, ed. (٤)  
John wilkinson, Jerusalem Pilgrims Before The Crusades, England 1977. p.p. 141 - 145.

ونظراً لأهمية الرحلة التي سوف يبرزها الباحث في موضعها وكونها تعكس رؤية أوروبية لكثير من الجوانب في المجتمعات التي مرت بها غرباً وشرقاً حيث الغرب الأوربي ومصر وفلسطين آثر الباحث أن يتناول المادة الواردة بها بالتحليل والنقد في دراسة تاريخية صنفها إلى جوانب سياسية وعمرانية واقتصادية واجتماعية وختمها بملاحظاته وأهم النتائج التي خلص إليها مدعماً بحثه ببعض الخرائط التوضيحية، ثم أعقب ذلك بعرض الترجمة العربية لنص الرحلة كي يضع حقائقها مجردة بين يدى القارئ العربي إذا ما أراد التحقق بنفسه من جزئياتها أو تتبع البلاد والمدن التي مرت بها الرحلة متضمنة ما أدخل عليها من إضافات وتفسيرات حرص الباحث على وضع علامات مميزة لها.

وفي بدء هذه الدراسة ينبغي التعرف على مدون الرحلة وتاريخها، فحقيقة لم نعثر في المصادر المتاحة على ما يمكننا من التعرف على شخصية برنارد الحكيم BERNARD THE WISE أو برنارد الراهب BERNARD THE MONK صاحب هذه الرحلة ومدونها وكل ما عرفناه عن هذه الشخصية كان من خلال ما كتبه هو في رحلته فهو راهب من جبل سانت ميشيل في برتاني BERTANY (مقاطعة في غرب فرنسا) دفعته الرغبة في زيارة الأماكن المقدسة في فلسطين إلى الخروج لزيارتها وهو بذلك يمثل النمط المألوف للمثقفين من أهل أوروبا في عصورها المظلمة الذين أفرزتهم الحركة الرهبانية البندكتية الواسعة التي شملت معظم أرجاء الغرب الأوروبي. ويذكر برنارد أنه اصطحب معه في رحلته راهبين أحدهما راهب إيطالي يدعى ثيودو مند THEUDEMUN DUS من دير القديس فينسنت ST. VINCENT الواقع في مقاطعة بنفينتو - بنفيتيوم BENEVENTO – BENEVENTUM (٥) أما الثاني فهو أسباني يدعى ستيفن STEPHEN.

كان الهدف من الرحلة وفقاً لما أورده صاحبها هو زيارة الأماكن المقدسة في بيت المقدس. أما ما جاء من وصف للأماكن الأخرى في الأراضي المقدسة في فلسطين وكذلك بعض البقاع في شمال مصر فضلاً عن البلاد التي وقعت على خط سير الرحلة في أوروبا لم تكن هي المقصودة من قيام الرهبان الثلاثة برحلتهم وإن كانت قد دخلت في دائرة اهتمامهم بحكم وقوعها على الطريق ولثقافتهم الدينية ولعل حرص أبطال الرحلة الثلاثة على التوجه إلى البابوية في روما للحصول على المباركة والمساعدة لهم في مشروعهم يقدم الدليل على أن الهدف منها هو الحج، ثم تقديم وصف يكون بمثابة الدليل كي يستفيد منه الزوار المسيحيون حينما يقصدون بيت المقدس، ولذا

(٥) أسس اللمبارديون دوقية بنفينتو التي يقع مركزها على بعد حوالى ١٤٢ ميل جنوب شرق روما إلى جانب درقية سبوليتو SPOLETO كما أسسوا دوقتي تارنتوم TARENTUM وفرویلي FRIULI في الشمال منها وهكذا أصبحت البابوية في روما محاصرة بدوقيات لومباردية غير أن بنفينتو وسبوليتو خضعنا للسلطة البابوية بمساعدة من الامبراطور شارلمان Charlemagne ٧٦٨ - ٨١٤م، ولمعرفة المزيد عن علاقة المقاطعة بالبابوية راجع:

Walter Vilman, A Short History of the Papacy in the Middle Ages, 2 nd, ed., London

1974 , pp 48, 79, 118, 132, 174.

فمن الجائز إطلاق لفظة الحجاج على الرهبان الثلاثة إذ أنها اللفظة الواردة بالمصادر حين الإشارة لكل من يتوجه إلى الأراضي المقدسة في الشرق بغرض الزيارة

أما تاريخ الرحلة فبداية؛ حدد برنارد الحكيم تاريخ رحلته بأنها وقعت في عام تسعمائة وسبعين للميلاد، بعد الحصول على مباركة البابا نيكولاس NICHOLAS للقيام بالرحلة (٦) ولم يحدد أي نيكولاس هذا، وبالبحث تبين أن أول من تولى منصب البابوية ويحمل هذا الاسم «نيكولاس» وذلك في الفترة من ٢٤ أبريل ٨٥٨ إلى ١٣ نوفمبر ٨٦٧م./ ٥ محرم ٢٤٤ إلى ۲۲ ذي القعدة ٢٥٣ هـ، أما أقرب الباباوات تاريخياً الذي حمل بعده ذات الاسـم فهو نيكولاس والذي عرف بإسم نيكولاس الثاني الذي تولى البابوية في الفترة من ١٨ ديسمبر ۱٠٥٨إلى ۲٧ يوليو ۱٠٦۱ (٧) م. ۲۸ شوال ٤٥٠ إلى ٥ رجب ٤٥٣ هـ، وبداية فإن برنارد قد سجل خطاً تاريخيا واضحاً تتمثل في عدم اتفاق التاريخ الذي حدده لرحلته مع تاريخ تنصيب الرجلين الذين حملا اسم نيكولاس.

على أن هناك من الباحثين من يشير إلى أن الرحلة تمت حوالي عام ۸۷۰م. أو في الفترة ما بين عامي ٨٦٧: ۸۷۰م (۸) ولم نجد لدى هؤلاء ما يرتكزون عليه بوضوح في تحديد هذا التاريخ، إلا أن برنارد أورد أحداثاً تاريخية تساعد الباحث على إيجاد الأسانيد التي يمكن التحقق منها عن تاريخ قيام الرحلة وعودتها، ومن ذلك أنها مرت بميناء باري BARRI الإيطالي في أثناء السيطرة الإسلامية عليه، وفي هذا

(٦)HANS Kühner. Encychlopedia of the Papacy, trans From German by Kenneth J   
Northcall, London 1959, pp. 49-50

انتخب نيكولاس الأول ليعتلي كرسي البابوية، وهو يعتبر من أعظم شخصياتها شأناً، وكان قد تلقى تعليماً في قانون الكنيسة وتقاليدها، عمل في مساعدة عدد من الباباوات فتدرب على منصبه ونجح فيما طمع إليه بفضل ما بثه من أفكار، وما كان عليه من فصاحة إذ كان يكتب للملوك ولرجال الدين كأنه صاحب السلطان الأعلى. فكانت سلطة البابوية عند وفاته معترفاً بها في أقاليم أوسع مما قبل اعتلائه المنصب: راجع: Walter VII mana, Op. Cit. pp. 102 - 104.

(۷) الاسم الحقيقي لهذا البابا هو جيرهارد البرجندي Gerhard of Bergandi وفي عهده انعقد مجمع اللاتيران الكنسي ۱۰٥۹م واتخذ قراراً بأن انتخاب البابا هو من حق الكرادلة فقط لمعرفة المزيد عن تلك الشخصية، راجع:

Hans Kühner,Op. Cit, p. 72

(۸) عزيز سوريال عطية: الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ط ۲، القاهرة ١٩٩٠م  
ص ٣٠، راجع أيضاً:

Bernard the Monk, ed., Op. Cit, p. 141, n. 2

(۹) باري: مدينة ساحلية تقع عند مدخل البحر الإدرياني من الجهة الغربية والميناء بعد العاصمة العسكرية

الإقليم لمبارديا. انظر:

Bury, J. B, History of the Eastern Roman Empire, London 1912

الصدد تشير المصادر إلى أن مسلمي شمال أفريقيا هاجموا إقليم دالماشيا DALMATIA وحاصروا مدينة راجوزة RAGUSA الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتي مدة خمسة عشر شهرا فاستنجد الأهالي بالإمبراطور البيزنطي بأسيل الأول BASSELI والذي ما لبث أن تولى العرش في عام ٨٦٧ حتى ٨٨٦م / ٢٥٣ - ٢٧٣هـ فأرسل أسطولاً لنجدتهم فحول المسلمون هجومهم تجاه بارى واستولوا عليها (۱۰). وهكذا نجد أن بدء الرحلة ارتبط باستقبال البابا نيكولاس الأول لأفراد الرحلة الذي انتهت فترة بابويته في نوفمبر من عام ٨٦٧، وليس نیکولاس الثاني الذي خلفه بما يقارب، القرنين كما ارتبط بدؤها باستيلاء المسلمين على باري، ربما في نفس العام حينما تولى باسيل العرش البيزنطي. وتحتوي الرحلة في أحداثها التالية على ما يؤكد وقوعها في فترة الأعوام الثلاثة المذكورة.

وفيما يختص بأهمية الرحلة فقد اجتمعت عدة أسباب كي تعطى لرحلة برنارد أهميتها التاريخية، فصاحبها كان شاهد عيان للأحداث بل هو بطلها، وهو الأوربي ورجل الدين المسيحي المحمل بثقافات أوروبا في العصور الوسطى بكل ما عرف عنها من اضمحلال. وهو الحاج الذي دفعه شغفه إلى زيارة الأراضي المقدسة بعد ترحاله بين عديد من البلاد المصرية. وكانت زيارته في وقت اضطربت فيه الأحوال السياسية داخل الدولة العباسية، إضافة الى بروز دولة الأغالبة في شمال أفريقيا، فكان المجال مفتوحاً أمام هذا الحاج المسيحي كي يرصد جانباً مما تعج به الساحة ن أحداث وحركة، وهذا ساعد في إلقاء بعض الضوء على جوانب من الصراعات بين القوى السياسية في حوض البحر المتوسط. كما تأتى أهمية الرحلة من أنها قدمت بشكل واضح مشاهدات شكلت مادة خصبة للتعرف على بعض النواحي الحضارية في مجال العمارة والعملة والزراعة والتجارة والطرق والنظم، فضلا عن إلقائها بعض الضوء على الأوضاع الاجتماعية القائمة، وعلى الرغم من أن بعض المعلومات التي قدمها برنارد كانت مألوفة فإنها تعد تأكيداً من لما أوردته مصادر هذه الحقبة وتوضيحاً لها.

وبعد التعرف على صاحب الرحلة ورفيقيه وبعد إبراز هدفها وتاريخ وقائعها وأهميتها،

(۱۰) قسطنطين السابع (بورفير وجنيتوس): إدارة الإمبراطورية البيزنطية، عرض وتحليل وتعليق محمود سعيد عمران، بیروت ۱۹۸۰ م ص ۱۰۸ - ۱۱۰. يوجد بعض القبس حول تاريخ سيطرة المسلمين على باري. إذ يذكر هذا المصدر أن المسلمين سيطروا عليه في عام ٨٧١م، ثم نجد المصدر نفسه يشير إلى أن المسلمين أتموا ذلك بعد تولى باسيل الأول العرش ورفع الحصار عن راجوزة، بينما يذكر بيورى أن المسلمين سيطروا على بارى عام ام. في حين يشير باحثون آخرون إلى سقوط الميناء في أيدي المسلمين عام ٨٤٦ م. وعودته إلى البيزنطيين عام ٨٧١ م.، انظر:

Bury, J. B., Op. cit. p. 313, Cambridge Medieval History, vol IV, The Byzan tin Empire, Part 1, Cambridge 1960, p.p. 728 - 729,

عيسى، ومراجعة محمد شفيق أرشيبالد الريس): القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط. ترجمة.

غربال، القاهرة ١٩٦٠، ص ۲۱۸

يتعرض البحث لأبعادها خلال الصفحات التالية في دراسة تاريخية نقدية مع الالتزام بتصنيف مادتها إلى أربعة محاور أساسية وبداية فقد ورد في رحلة برنارد الحكيم بعض الأحداث والمواقف الشخصية وجدها جديرة بأن يذكرها في إطار حديثه العام عن تفاصيل الرحلة ومنها ما ارتبط بالجوانب السياسية تخص المجتمعين الأوربي والإسلامي حيث جنوب إيطاليا، وكل من مصر وفلسطين، وذلك خلال النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي أواسط الثالث الهجري. وقبل التعرف على الرؤية السياسية لهذا الزائر الأوروبي داخل المجتمعات التي مرت بها رحلته، فيبدو الزاماً التعرض بإيجاز إلى أحوالها السياسية المعاصرة للرحلة.

ففيما يتعلق بالبلاد الإيطالية التي انطلقت منها الرحلة فكانت تعيش نفس الظروف التي شملت باقي أرجاء الإمبراطورية الكارولنجية من اضطراب في أخريات عهدها، ووفقاً لتقسيم معاهدة فيردان. FERDEN ٨٤٣م. وقعت إيطاليا التي اختلطت بها الأجناس واللغة والتقاليد وفقاً لظروف سياسية ضمن القسم الأوسط المحصور بين القسم الجرماني شرقي نهر الراين والقسم الغربي الذي يضم. المقاطعات الغالية الرومانية (۱۱) ، كما أحاطتها عدة ظروف ساعدت في تمزيقها سياسياً بين عدة قوى تطرقت الرحلة إلى جانب منها وهي: الإمبراطورية البيزنطية التي ما لبثت أن حاولت استعادة هيبتها، وأراضيها من البابوية في ظل السياسة القوية للإمبراطور باسيل الأول، والأمراء اللمبارديين، والبابوية، وكذلك المسلمين في الجنوب الذين تدخلواً بدعوة من المدن الساحلية في المنازعات التي نشبت بينها وبين اللمبارديين في الداخل (۱۲).

أما عن مصر والشام اللتين هما هدف الرحلة فقد كانتا تخضعان لسيادة الخلافة العباسية في ذلك الوقت، التي كانت تعاني من تزايد النفوذ التركي في البلاط والجيش، على حين انفصلت أجزاء منها في الغرب. فبعد عدة حروب أهلية استقل بنو الأغلب عملياً عنها (۱۳)، في حين واجه الأمويون في الأندلس كثيراً من الصعاب. وكانت أهم الأحداث التي شهدتها مصر والشام وقت الرحلة أن وصل أحمد بن طولون إلى مصر نائباً عن واليها باكياك التركي (منتصف سبتمبر ٨٦٨م / ۲۳ رمضان ٢٥٤هـ.) متقلداً القصبة (أي العاصمة وتضم الفسطاط

(۱۱) ديفز ( هـ. و ): أوربا في العصور الوسطى. ترجمة د. عبد الحميد حمدي محمود، الطبعة الأولى، الاسكندرية ١٩٥٨م، ص ٦٤ - ٦٦: راجع أيضاً: محمد رفعت: الأطلس التاريخي (في العصور القديمة والمتوسطة والحديثة، لندن ) ب ت. الخريطة ص ۱۸.

(۱۲) ابراهيم طرحان المسلمون في أوربا في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٦، ص ۲۱۱ ۲۱۲؛ راجع أيضاً: وديع فتحي عبد الله: بيزنطة ومسلمو جنوب ايطاليا وصقلية في عهد باسيل الأول المقدوني (٨٦٧ - ٨٨٦م. / ۲٥٣ - ۲۷۳ هـ. ). الاسكندرية ۱۹۹۲، ص ۱۲.

(۱۳) أسرة الأغالبة تنتسب إلى جدهم الأغلب بن سالم التميمي، تمكنوا من تأسيس دولة قوية لهم في شمال إفريقيا في أخريات القرن الثامن الميلادي. امتد نفوذها ليشمل تونس وطرابلس وصقلية لكنها ظلت موالية للخلافة العباسية، وكانت ذات حضارة إذ اهتم حكامها بالآداب والعلوم والفنون، وظلت دولتهم درعاً راقياً ضد توسع الشيعة حتى سقطت على أيدهم في سنة ٩٠٨م / ٢٩٦ هـ.: راجع: السيد عبد العزيز سالم، العصر العباسي الأول، الاسكندرية.۱۹۷۷م، ص ١٩٣ - ١٩٥.

والعسكر) دون الأعمال الخارجة عنها، وما لبثت أن استقرت له بمصر الأحوال بعد الانفراد بشئونها السياسية والمالية، وذلك بالتخلص من عامل الخراج أحمد بن المدير وعامل البريد شقير الخادم، كما تهيأت الظروف أمامه بأن فرض ولايته على مجمل البلاد حتى برقة، ثم توجه إلى الإسكندرية في الحادي عشر من يوليو ۸۷۰م./، الثامن من رمضان ٢٥٧ هـ. بعد لقاء مع واليها إسحق بن دينار خارجها، فسمح له ابن طولون بالبقاء على ولايتها ربما لخبرته بها. أما بلاد الشام حيث جندي فلسطين والأردن فكانا تحت ولاية أحمد بن عيسى بن شيخ الشيباني الذي لم تنته ولايته إلا في عام ٨٧١م / ٢٥٧ هـ.، ثم استقر الأمر أخيرا لابن طولون عليهما في عام ٨٧٨م/ ٢٦٤هـ. (١٤) (وهذه الأحداث تبين أن الأوضاع السياسية في البلاد التي شهدت وقائع الرحلة لم تكن مستقرة. ففي الشرق، كانت هناك ثلاثة كيانات المجتمعات إسلامية مر بها الزوار وهي: - الإسكندرية تحت ولاية ابن دينار، والفسطاط والعسكر مع بقية أقاليم. الشمالية في ظل ولاية ابن طولون، وكذلك جندي فلسطين والأردن تحت ولاية أحمد بن عيسى، وذلك برغم تبعية تلك الولايات جميعاً السيادة العباسيين في بغداد.

وفي وسط تلك الظروف السياسية تبدأ أحداث الرحلة من روما بعد الحصول على مباركة من البابا وهذا في حد ذاته يبرز مدى اهتمام البابوية بالحج إلى الأراضي المقدسة في فلسطين إلى الحد الذي معه كانت تقدم دعماً مالياً تشجيعاً لذلك الغرض، ومن ناحية أخرى فإن هذا يعكس تزايد نفوذها داخل المجتمع الأوربي وقدرتها على الحركة في كثير من الاتجاهات، وبعد مغادرة الرهبان الثلاثة مدينة روما، ذكر برنارد أنهم واصلوا طريقهم إلى مدينة بنفنتيو وفي مواضع متناثرة نوه إلى بعض الوقائع السياسية التي شهدتها المنطقة، ومنها ما نشب من نزاعات بين الأمراء اللمبارد التي انتهت باستدعاء الامبراطور الكارولنجى لويس الثاني LOUIS II (٨٤٣-۸۷۱م)، وكذلك تناول برنارد شخصيات کارولنجية أخرى بالذكر مثل تشارلز CHARLES ولوثر LOTHAIR، أخوا لويس، وذكر أن أهل المدينة من المسيحيين، وربما لهذه الإشارة أهميتها، إذ كانت المدينة قد سقطت في يد لويس الثاني لفترة امتدت من عام ٨٦٦. حتى ۸۷۱م. وفي إبراز برنارد للمسيحيين كطرف تمثل في الجانب الكارولنجى ما يشير إلى وجود طرف آخر، وبالفعل فقد كان هو الطرف الإسلامي حيث كان المسلمون قد وصلوا بغاراتهم حتى مدينة روما ذاتها عام ٨٤٦م، بل سيطروا على بنفنتيو في أثناء غاراتهم المتقدمة وذلك في عام ۸٦۰م. (۱٥) أي قبيل انطلاق الرحلة ببضع سنوات، ثم خرج برنارد من بنفنتيو في طريقه إلى

(١٤) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، تحقيق: محمد کرد علي، دمشق (ب. (ت)، ص ٤٢ - ٥٠، وهو يحدد تاريخ تولى ابن دينار الاسكندرية باسم ابن طولون بعام ٢٥٦ هـ، أما عن التاريخ المذكور في المتن فانظر: الكندي کتاب الولاة وكتاب القضاة، تصحيح رفن کست، بیروت ۱۹۰۸، ص ۲۱٦: وأيضاً: ولاة مصر، تحقيق: حسین نصار، بیروت ١٩٥٩م، ص ٢٤٢

(۱٥)

Christie Neil, The Lombards, The Ancient Longobard 3, 10 U.S.A. 1995. pp. 206, 209.217

ميناء بحري ينطلق منه إلى هدف رحلته في الشرق فوصل أولا إلى مينا، باري الساحلي حيث عني بالإشارة إلى تحصيناته الصناعية والطبيعية، والجدير بالذكر أن المصادر أقرت الدور الذي لعبته هذه المدينة خلال حكم المسلمين لها في مصر والمناطق المتاخمة في وسط وجنوب إيطاليا وأنهم أقاموا بها مسجداً جامعاً بعد الفتح (١٦) وسجل برنارد هذه الحقائق مؤكداً على وقوعها.

وبعد أن وصل الرفقاء إلى باري، توجهوا إلى حاكمها سلطان SULDANUS، ووفقا لما ذکره برنارد فذلك هو اسمه وليس لقبه مصححا اعتقاد بعض الباحثين (۱۷)، وهناك طلبوا التصريح لهم بالذهاب إلى الإسكندرية. وأكد برنارد في هذا الموضع على أن حاكمي الإسكندرية وبابيلون (أي الفسطاط) كانا يعملان تحت إمرة أمير المؤمنين خليفة بغداد وسامراء، وهكذا قدم أكثر من معلومة نها طابعها السياسي، تشير إلى أنه أقبل على اكتساب معلومات قبل رحيله إلى البلاد التي تصدها، ليكون محيطا بأوضاعها المختلفة حتى أ أدرك حقائق مثل: جميع المسلمين عدا مسلمي الأندلس يخضعون تحت لواء الخليفة العباسي في بغداد، كذلك أدرك حقيقة أنه يقيم إبان الرحلة في مدينة سامراء التي عبر عنها بمسمى اکسیناري AXINARRI إضافة إلى أن الرحالة استخدم لقب أمير المؤمنين الذي عادة ما يطلق على الخليفة العباسي ويحتمل أنه عرف تلك المعلومات في أثناء تواجده بين المسلمين نظرا لما اعتادوا عليه بذكر اسم الخليفة والدعاء له من فوق المنابر داخل المساجد.

غير أن اختيار أفراد الرحلة الثلاثة لميناء باري ومنه ميناء تارنتوم TARUNTUM إلى الجنوب لكي ينطلقوا منه إلى هدف رحلتهم برغم خضوعه للمسلمين ما يلفت النظر ويثير التساؤل. لماذا لم يتجهوا إلى ميناء آخر يقع تحت سيطرة القوى الأخرى المتنافسة في جنوب إيطاليا. ويمدنا برنارد نفسه في موضع آخر بما يعد تفسيرا لذلك إذ يشير إلى الأحوال السياسية السيئة التي سادت البلاد الإيطالية وانتشار الأشرار بها الذين يسرقون وينهبون حتى أنه لا يمكن لمن يمر بها أن يسير في أمان إلا في صحبة كبيرة مسلحة، وبينما كان الوضع كذلك داخل إيطاليا، أقر برنارد بأن الأمير المسلم في بارى اظهر تسامحا واضحا بتقديمه التسهيلات ومد يد العون للمسيحيين المتجهين لزيارة المقدسات في فلسطين سواء بالسفن أو بتسهيل مرورهم إلى مصر وغيرها من البلاد التي يجتازونها وإضافة إلى ذلك يمكن القول بأن الذهاب إلى بلاد اسلامية يكون أكثر يسراً حين يكون الخروج من ميناء خاضع للسيادة الاسلامية.

على أية حال، أتاحت المعلومات المتفرقة التي قدمها لنا برنارد فرصة التعرف على طبيعة العلاقات السياسية بين القوى المختلفة في جنوب إيطاليا وما يتعلق منها بالقوى الأخرى؛ حيث

(١٦) قسطنطين السابع: المصدر السابق، ص ۱۰۹: راجع أيضاً: ارشيبالد (لويس): المرجع السابق، ص ٢١٥:

213 Bury, J. B, Op. Cil, p.

(۱۷)

أرشيبالد (لويس): المرجع السابق، ص ۲۱۸

أشار إلى قوة مسلمي الجنوب الإيطالي وسيطرتهم على بلاد منها تارنتوم، وباري التي اتخذت عاصمة لهم بدليل إقامة الأمير المسلم فيها، وفي المقابل تعرض برنارد إلى قوة أخرى في الجنوب الإيطالي، وهم المسيحيون حيث تألفت في نظره من الأمراء اللمبارد المتنازعين في ظل سيطرة الإمبراطور الكارولنجى لويس الثاني، بعد أن فرض نفوذه على بنفنتيو وباقي الممتلكات اللمباردية. ومن القوى التي ذكرها برنارد دولة رومانيا ROMANI موضحا أن الأوضاع بها غير مستقرة ولعله يقصد بها الجزء الغربي من الإمبراطورية الكارولنجية حيث فرنسا. نظرا لأن أهلها كانوا يتحدثون لغة مشتقة من اللاتينية تعرف باللغة الرومانية (۱۸). وحينما ذكر أن سلطان أمير بارى منح الحجاج خطابين يتضمنان وصفا لهم معرفا بأصولهم وهويتهم موجهين إلى كل من والى الاسكندرية ووالى بابلونيا (الفسطاط) بغرض تسهيل دخولهم إلى البلاد المصرية. فذلك يؤكد على قيام علاقات قوية بين الكيانات الإسلامية المختلفة التي استظلت براية الخلافة العباسية التي لاتزال توحد كلمة المسلمين سواء أكانوا من الأغالبة أم من أتباع القادة الأتراك لدى الخليفة.

كذلك دون صاحب الرحلة مشاهدته لأحداث عايشها بنفسه عندما رصد حركة السفر في ميناء تارنتوم، وذكر أن سنة منها حملت تسعة آلاف أسير من أهاني بنفنتيو إلى الموانئ. الإسلامية، وهذه إشارة لها دلالتها إذ تؤكد على أن الأعمال الحربية ظلت متواصلة بين مسلمي الجنوب الايطالي والأمراء اللمبارد، الأمر الذي يفسر استعانتهم بالإمبراطور الكارولنجي لويس الثاني، كما تؤكد على أن كفة المسلمين كانت هي الراجحة في تلك الأونة إذ إن عدد الأسرى الكبير المذكور يعد خير شاهد على ما أحرزوه من انتصارات.

هكذا عرفنا برنارد ببعض الأوضاع السياسية السائدة من خلال رحلته في ذلك الوقت. وفي الصفحات التالية، تتعرض للموضوع التالي في هذا البحث وهو ما يتعلق بالجانب الحضاري من الرحلة، وبدوره يمكن تقسيمه تسهيلا للدراسة إلى جوانب متعددة، وبداية تتعرض للجانب الديني بما يتضمنه من زيارات ووصف المزارات وكنائس وأديرة، حيث احتوى على إشارات لبعض الجوانب المعمارية لمنشآت دينية. ويلاحظ أن ثقافة برنارد الدينية قد غلبت على ما قام بإيراده في التفاصيل المتعلقة بهذه الجوانب.

بدت اهتمامات برنارد الدينية منذ بدء رحلته مع رفيقيه من أوروبا، وذلك حين قدم وصفاً لكنيسة القديس ميخائيل ST. MICHAEL بأنها تقع بجوار جبل جرجانوس - GARGA NUS (وهو معروف حالياً باسم جبل القديس أنجلو MOUNT OF ST. ANGLO) والجبل يمتد داخل البحر المجاور، وهو الأدرياتي بارتفاع يصل إلى ١٠٥٥ متراً. وأوضح الحاج

(۱۸) Oman, C. H, The Dark Ages, London 1908, p. 409

راجع أيضاً: سعيد عيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ط، القاهرة ١٩٩٤، ج ١، ص ٢١٦ - ۲۱۹: ديفز. (هـ. و): المرجع السابق، ص ٦٤ - ٦٦.

المسيحي كذلك أن الكنيسة ضمت ديراً به عدد كبير من الرهبان وأهتم بذكر اسم رئيس الرهبان ويدعى بنيجناتوس BENIGNATUS، كما أشار إلى أشجار البلوط التي غطت سفوح الجبل، وهذا يرجع بطبيعة الحال إلى جنوح المسيحيين على مر العصور إلى تقديس هذا النوع من النبات (۱۹) لأسباب عقائدية يشار إليها لاحقاً. وعند العودة ذكر برنارد معلماً دينياً آخراً لقديس يحمل ذات المسمى عرفه بمسمى ميخائيل صاحب المقبرتين TOMBS ST. MICHAEL OF THE TWO، وأن كنيسة أقيمت إحياء لذكراه فوق الجبل الناتئ في بحر الشمال، حيث تحيط به الأمواج العاتية، كذلك أشار إلى أن الموقع يضمر ديرا، وذلك بإيراده الاسم رئيس الرهبان فيه ويدعى فينيمونتيوس PHNIMONTIUS، وهو مواطنه وزميلاً له حيث كان من مقاطعة برتاني. وفي إيطاليا أورد عدداً من المزارات والكنائس حيث الكهف ذو السبعة مذابح عند جبل أوريس MOUNT OF AUREUS أي جيل الذهب الواقع إلى الجنوب من توسكانيا PUSCIANO. وكذلك ذكر كنيسة القديس يوحنا المعمداني في منطقة الاتران LATERAN شرقي روما التي أحسن بناؤها وكانت تضم قصراً للرجال الذين تولوا مهمة القاصد الرسولي. أما في الغرب من روما فتقع كنيسة القديس بطرس ST PETER وبالمدينة تم دفن أعداد كبيرة من موتى القديسين المباركين.

وفي الإسكندرية مزارات شدت انتباه صاحب الرحلة: قبر القديس مرقس (۲۰) الذي دعا إلى المسيحية ثم أصبح أسقفاً بها، وكان الراوي قد سجل اعتقاده في أن الملاك ميخائيل قام بدفن القديس خلف البوابة الشرقية للمدينة، الأمر الذي دعا المسيحيين إلى إقامة دير في هذا المكان سكنه كثير من الرهبان، كما تم دفنهم به. وسجل برنارد كذلك حقيقة تاريخية معروفة لدى البعض مفادها أن البنادقة المتمرسين في ركوب البحر تمكنوا من نقل الجثمان إلى بلادهم. ويحدد البعض تاريخ وقوع هذه الحادثة بعام ۸۲۹م / ٢١٤ هـ. في غفلة من الحراس (۲۱).

)۱۹) THEODERICH, DESCRIPTION OF THE HOLY PLACES, TRANS.  
BY AUBERY STEWART, P.P.T. S.. VOL. V, LONDON 1896, P. 53

(۲۰) ترى الكنيسة المصرية أن القديس مرقس هو مؤسس كنيسة الإسكندرية والحرص على أن يلقب خلفاؤه من بعده حتى اليوم بلقب «بابا الاسكندرية وسائر الكرازة المرقسية نظراً لمكانته: فهو صاحب الإنجيل الثاني واستشهد في سبيل الدعوة، انظر: محمد عواد حسین وداوود عبده داوود: الإسكندرية في العصر البيزنطي منشورا في تاريخ الإسكندرية منذ أقدم العصور، الإسكندرية سنة ١٩٦٣م.، ص ١٠٠: بطرس عبد الملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس. مادة مرقس.

(۲۱) Altwalter, D., Dictionary of Saints, Penguin Books, London 1965, pp. 231 – 232

انظر أيضاً: محمود سعيد عمران: اركولف ورحلته إلى الشرق، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الثالث ۱۹۸٥، ص ۳۳۷.

وتشير الشواهد إلى أن دير القديس مرقس الذي قصده الزائرون هو ذاته ذلك الدير الذي ألحق بالكنيسة البازيليكية التي أقيمت في العصر البيزنطي وحملت اسمه، وكانت تقع على شاطئ. البحر ويمكن رؤيتها من السفن عند دخولها إلى الميناء الشرقية، ولا شك أنها لم تكن تبعد عن الكنيسة المرقسية الحالية، وعند الفتح العربي كان ما يزال بها مدفن من المرمر يحوى جثمان القديس (۲۲). ثم يذكر صاحب الرحلة ديراً ذكر اسمه بدير الأربعين قديساً وحدد موقعه فيما وراء البوابة الغربية للمدينة ولعله الدير الذي تم إلحاقه بالكنيسة التي افتتحها القديس أثناسيوس في عام ٣٧٠ م، فحملت أسمه وذلك في حي بنديون BENDION (۲۳)

وفي مصر أيضاً شاهد برنارد الأهرام الثلاثة، واعتقد أنها مخازن الغلال السبعة التي أنشأها النبي يوسف (ع.م) مؤكداً على أن إقامتها يعد أهم حدث شهدته مصر على مر الزمن. وفي هذا الصدد يتساءل الحاج المسيحي فلكس فابري الذي زار مصر عام ١٤٨٣م.، قائلا: «لماذا يذكر الحجاج فيما مضى أن الأهرامات كانت مستودعاً لغلال يوسف (ع.م) ؟ وإنني لأعتقد أن سبب ذلك هو أن الأهرامات يمكن رؤيتها من بعيد، وبها مدخل وعر يمكن الدخول منه إلى جوفها كذلك فإنها تقع فوق مرتفع يعلو بابليون»، أي القاهرة ومشتملاتها القديمة. ويستأنف فلكس حديثه فيقول: «ولو أنني لم أرها عن كثب، لكنت اعتقدت بسهولة أنها كانت تستخدم كمخزن للغلال، لكن رؤيتي لها أكدت لي أنها كانت آثاراً خاصة بالوثنيين (٢٤)» (الفراعنة) وبذلك فالواضح أن النزعة الدينية تغلبت على برنارد فيما اعتقده، كما يتبين أن الحج المسيحي كان يكتنفه قدر كبير من السذاجة، وشح في المعلومات وقت الرحلة.

وخلال زيارة الفسطاط أيضاً، ورد بالرحلة أن بها بطريركاً يتصرف ببركة الله في شنون الأساقفة والرهبان والمسيحيين في شتى أرجاء مصر، وذكرت أن اسمه: ميخائيل MICHAEL ولقبته بلقب DOM أي السيد، وبالرجوع إلى المصادر المهتمة بالتأريخ للكنيسة في الشرق يتبين أن بطريرك الإسكندرية عادةً ما ينتخب بطريكاً على مجمل مصر من كنيسة الملاك ميخائيل المعروفة باسم فهادين في حصن بابليون مقراً له وهي تدين بالمذهب الملكي أو الملكاني، ولعل المقصود به المذهب الأرثوذكسي إذ من المعروف أن غالبية مسيحي مصر يعتنقون هذا المذهب. ومن ناحية أخرى أورد سعيد بن بطريق المعاصر، اسم اثنين من البطاركة: ميخائيل بن بكام وكان مصرياً، المتوفي ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ - ٨٧٠م، فخلفه شخص آخر يدعى ميخائيل أيضا كان من أهل روما. وعليه نجد ما يشجع الرهبان.

(۲۲) داوود عبده داوود: فن العمارة في العصر البيزنطي، منشور في تاريخ الإسكندرية منذ أقدم العصور، الإسكندرية ١٩٦٣م.، ص ۲۱۱ - ۲۱۲

(۲۳) المرجع السابق: ص ۲۱۲.

(٢٤) Fabri Felix, Le Voyage en Egypte, 1483 A. C., Trans Jacques Masson  
 , Paris 1975, Tome 1!. pp. 448, 451

الثلاثة على زيارة هذه الكنيسة فريما كان البطريق فيها من بني جلدتهم. أما حينما توجه برنارد إلى مدينة تنيس، فلم يهتم إلا بذكر ما احتوته من كنائس قديمة وأهلها المسيحيين وما وقع بها من أحداث ترجع إلى عهد النبي موسى (ع.م) وكانت المصادر قد أقرت بوجود " من الملكانيين بها (٢٥).

أما حينما وصل الراهب برنارد إلى مدينة الفرما، فقد اهتم يذكر كنيسة السيدة مريم الكائنة ربها، كما أشار أيضاً إلى حادثة نصيحة الملاك إلى يوسف النجار بالخروج مع السيد المسيح (وهو طفل) وأمه، في أثناء الرحيل من مصر. ويتضح من المصادر المعاصرة أن كنيسة الفرما كانت تحتل مكانة مرموقة بين كنائس مصر إذ كان أسقفها له دوره المؤثر في الأحداث التي تخص المسيحيين (٢٦). أما عندما وصل برنارد إلى مدينة غزة فعرفها بأنها مسقط رأس شمشون وهي تلك الشخصية المعروفة بقوته الجسمانية الهائلة فضلاً عن أنه عمل قاضياً لبني إسرائيل مدة عشرين سنة (۲۷). وحينما مر الزائر بمدينة الرملة في طريقه لبيت المقدس لم يذكر سوى دير القديس جورج على أنه يقع بالقرب منها.

أما عن الجانب الديني في القدس التي تعد الهدف الأساسي للرحلة فقد عنى برنارد كالعادة بالتعريف بأبرز رجال الدين بها، فذكر أن مسيحيي الأراضي المقدسة اختاروا بطريركا ليترأس جميع المسيحيين في المنطقة وكان يدعى ثيودوسيوس Theodosuis وقد أقر سعيد بن بطريق ذلك ذاكراً اسمه: ثاودورس وأنه اعتلى المنصب (٨٦٦ - ٨٨٤م / ٢٥٢ - ٢٧١هـ). كذلك اهتم مدون الرحلة كثيراً بمقدسات المدينة ومزاراتها الدينية، وأيضاً ببعض الأماكن المقدسة خارجها، فبادئ ذي بدء نجده يقول: «تم استقبالنا في بيت ضيافة الإمبراطور الأمجد تشارلز (أي الإمبراطور شارلمان Charlemagne ٧٦٨ – ٨١٤م.) حيث يتم السماح لكل من يتحدث

(٢٥) سعيد بن بطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت ۱۹۰۹ م. ص ٦٤، ٦٩. راجع أيضاً: يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، المعروف بصلة تاريخ أوتيخا، طرابلس - لبنان ١٩٩٠م، ص ٢٤، ۲۸۱۰۲٥٣ - ۲۸۳: ساويرس بن المقفع: تاريخ البطاركة، المجلد الثاني (بت)، ج ١١، ص ۱٤، ۹۱؛ أما عن تنيس، فقد وصفها ياقوت الحموي بأنها «جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط والفرماني شرقيها، راجع: معجم البلدان، بيروت ۱۹۷۹م، ج ۲، ص ٥۱، ويرى أحد الباحثين أنها لاتزال موجودة إلى اليوم، وتقع إلى الجنوب الغربي من بور سعيد بمسافة تسع كيلو مترات، وبها بقايا من الطوب الأحمر المخلفة من أبنيتها القديمة، انظر: محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية. القاهرة ١٩٩٤م، ق ۱، مادة تنيس

(٢٦) الفرما: «مدينة على الساحل من ناحية مصر، وهي أول مصر من الشام، وهي شرقي تنیس قرب القطية بين العريش والقسطاط، على يمين القاصد لمصر.»، انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٤. ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

(۲۷) بطرس عبد الملك وآخرون المرجع السابق، مادة (شمشون)..

اللسان الروماني ويبغى التعبد بالوفود إليه، وبالقرب من بيت الضيافة هذا توجد كنيسة تم تشييدها إحياء لذكرى السيدة مريم، وهي تضم مكتبة فخمة يرعاها الإمبراطور المذكور، كما تحتوي أيضاً على اثني عشرة مسكنا للإقامة وحقول وكرمات وأفنية في وادى جوزافات أو قدرون وتوجد سوق قبالة بيت الضيافة». وهناك من يعتقد في أن دار الضيافة تلك كانت قد شيدت بغرض رعاية الحجاج المسيحيين في حوالي عام ٦٠٠م. بناءً على أوامر البابا جريجوري الكبير Gregory The Great (٥٩٠ م - ٦٠٤م) (۲۸). وبعد قرابة قرنين من الزمان أكدت المصادر على أن الإمبراطور شارلمان قد أحاط الأماكن المقدسة بعنايته، كما كان يقدم المساعدات إلى فقراء المسيحيين المقيمين هناك، وفضلاً عن ذلك كان يتابع أعمال الترميم والإصلاح للمنشآت الدينية في المدينة عن طريق مبعوثيه، ومن بين أعماله البارزة ترميم دار الضيافة المشار إليها سالفا، كذلك اهتم الإمبراطور بتشييد كنيسة على مقربة من هذه الدار كُرست للقديسة مريم - أقيمت الصلوات فيها باللغة اللاتينية بحيث ضمت مكتبة فاخرة، وذلك على مقربة من كنيسة القبر المقدس (۲۹). ومنح إدارة كل من دار الضيافة والكنيسة إلى الرهبان البندكتيين. وقد عرفت هذه المنشآت منذ فترة العصور الوسطى بالأبنية اللاتينية تمييزاً لها عن المنشآت البيزنطية الأرثوذكسية (٣٠). والواضح أنها ظلت مقصورة على الزوار القادمين من الغرب الأوروبي حتى الغزو الصليبي للمنطقة. والملاحظ هنا أن كنيسة مريم أو ماريا لاتينا وبقية الأبنية اللاتينية الأخرى كانت هدفاً أولياً في زيارة برنارد للقدس حتى أنها سبقت زيارته لكنيسة القيامة مقر الضريح المقدس الذي يأمه كل مسيحي، بيد أن هذا الأمر يعد طبيعياً، فلعل أهم ما يهتم به الزائر هو إيجاد المسكن المناسب للإقامة فيه مدة الزيارة، علاوة على أن النزل الذي أقام فيه كان يدار من قبل رهبان كاثوليك. الطائفة البندكتية، فكانوا بمثابة زملاء للزوار الرهبان الثلاثة ومن ثم لقيت هذه الأبنية الاهتمام الأكبر من برنارد فتصدرت كتاباته حينما دون ذكرياته عن القدس.

اتجهت الرحلة في مرحلتها التالية داخل القدس إلى مجمع الكنائس وهو ما يطلق على مجمله كنيسة القيامة الذي حظي باهتمام واضح، فذكر الزائر الأوروبي أن هناك كنيسة مقامة في شرقي المدينة فوق جبل كلفاري Calevary حيث المكان الذي زعم أنه عُثر فيه على الصليب الحقيقي، وتدعى كنيسة قسطنطين البازيليكية، والمقصود به الإمبراطور الروماني قسطنطين

(۲۸) King, E. J., The Knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931, p. 5.

ولمعرفة المزيد عن بطريركاية القدس زمن الرحلة، راجع: سعيد بن بطريق: المصدر السابق، ص ٦٦-٦٧.

)۲۹ ( Einhard. the Life of Charlemagne, with a Fareward, by Sidney Painter, Trans. From Latin by Samuci Epes Turner, Michigan 1960, pp. 42, 44, 55- 56.

De laville la Roulx, J., Les Hospitaliers en Terre sainte ct a Chypre (1100-1310) (٣٠)  
Paris 1904, pp. 5 - 7

الكبير Constantine TheGreat ٣٠٦ - ٣٣٧م، الذي امر بتشييدها؛ كما أشار الرحالة إلى ثلاث كنائس أخرى مجاورة: الضريح القدس Holy Spulcher وكنيستين في الجنوب والغرب دون أن يحدد اسميهما، لعلهما كنيستا السيدة مريم وجيمس الحواري James The Apostle نظراً لقربهما. وتمدنا الرحلة بعد ذلك ببعض التفاصيل المعمارية عن هذه الأبنية يشار إليها في حينه. ثم يختم برنارد وصفه لموقع كنيسة القيامة ذاكراً عنها «يقال أنها صرة العالم». وورد في المصادر الإسلامية أيضاً «وصرة الأرض بيت المقدس (۳۱)»، وعليه فهناك اعتقاد مشترك بين المسلمين والكاثوليك في أن المدينة المقدسة تحتل فعلياً هذا الموقع. ولا غرو فهذا يعكس اتجاه معتنقي الأديان السماوية إلى تشريف هذه المدينة وإحاطتها بالقدسية.

وإضافة إلى ما تم التعرف عليه عن كنيسة القيامة من خلال الرحلة، فقد أشار صاحبها إلى كنائس أخرى تنتمى إلى مدينة القدس أيضاً، إذ أورد أنه في الجنوب وفوق جبل صهوين تقع كنيسة القديس سمعان St. Simeon حيث غسل فيها السيد المسيح أقدام حوارييه كما يتدلى التاج الشوكي الذي قيل أنه وضع على رأس السيد المسيح قبل الصلب، وقد ذكر في المدونات السابقة أن ذات المكان شهد وفاة السيدة مريم وبمراجعة هذه المعلومات اتضح أن الصواب قد جانب برنارد في إطلاق مسمى القديس سمعان على مجمل أبنية الكنائس الصغرى فوق جبل صهيون إذ إن المصادر المتاحة لم تشر البتة إلى هذا القديس حين ذكرها للكنائس الصغرى المكونة للكنيسة التي فوق الجبل وهي ما عرفت في هذه المصادر بكنيسة جبل صهيون Church of Sion، أما عن الموقع: فقد أورده برنارد صحيحاً، مخالفاً لما ورد في رحلة ويليبا لد Willibald السابقة زمنيا عليه ومتفقاً في ذلك مع معظم المصادر اللاحقة، بيد أن هذه المصادر كانت أكثر دقة في تحديد الموقع بأنه في خارج المدينة، وإلى الجنوب من بوابتها الجنوبية، وكذلك في الحديث عن ارتباطها بذكرى وفاة السيدة مريم (۳۲). وهناك من المصادر ما يؤكد أن كنيسة صهيون ظلت باقية حتى هدمت في عام ١٠٣٣ م. / ٤٢٥ هـ. (۳۳). وهذا فيه ما يؤكد على أن كنيسة صهيون كانت لا تزال

(۳۱) ابن الفقيه الهمذاني: كتاب البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، بيروت، ص ١٤٥: راجع أيضاً بمزيد من

التفاصيل: ابن فضل الله العمري مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. تحقيق دوروتيا كرافولسكي، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٦م. / ١٤.٧ هـ، ص ١٢٤، ١٦٨.

(۳۲) Willibald, The Hodocporicon of Saint Willibald, (Circa 754 A. D.), (PT) Trans by Rev. canon Brownlow, in B. B. T. S., vol IV, London 1891, p. 46. Danic! The Russian, The Pilgrimage of the Russian abbot Danici in the Holy Land, Trans. by Wilson C. W in Palestine Pilgrims, Text Society, vol IV London 1891, p. 38., William of Tyre. A History of deeds done beyond the sea, Trans. by Emily Atwaler Babcock and Krey, New York 1943, vol I, p. 61,

الإدريسي: نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمداين والآفاق، نشر: راشن موللر، لیدن

۱۸۹۱م، ص ١٢٦.

(۳۳) يحيى بن سعيد الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٤٣٩.

قائمة وقت الزيارة. أما عن تدلى التاج الشوكي في الكنيسة، فيبدو أنه كان أمراً مرحلياً بحيث لم يره الزوار اللاحقون ومن ثم لم نجد له ذكراً في كتاباتهم.

تعرضت الرحلة أيضاً إلى كنائس أخرى في إطار مدينة القدس بالإشارة فقط دون تقديم تفاصيل ذات أهمية إذ لم يذكر برنارد عن كنيسة القديس ستيفن سوى أنها تقع إلى الشرق من كنيسة جبل صهيون، وفي الواقع رأى الزائر الصليبي ساولف حوالي ۱۱۰۳ م. أنقاض هذه الكنيسة. وحدد موقعها في خارج أسوار القدس جهة الشمال (٣٤)، كذلك اكتفي برنارد بالإشارة إلى كنيسة القديس بطرس، وحدد موقعها بأنها تقع إلى الشرق اكثر من الكنيسة السابقة وهي في الواقع تطابق موقع كنيسة التي تحمل ذكرى سجن القديس بطرس، ثم ما لبث أن اجتاز الرفقاء الثلاثة بوابة صهيون التي بطبيعة الحال تؤدى إلى داخل المدينة، حيث كانت المرحلة التالية من زيارتهم قد استهدفت المبنى الذي كان المسيحيون واليهود في تلك الآونة يعتقدون في أنه معبد سلیمان Solomun's Temple أو قصر سليمان Solomun's Palace وقد أدرك برنارد أن المكان يضم معبدا للمسلمين الذي هو في الواقع الحرم القدسي الشريف، وعلى كل، فلم يحظ المكان بأي اهتمام من قبله. ثم أشار كذلك إلى بوابة حديدية حدد موقعها في جنوب المعبد ذكر أن ملاك الرب أخرج القديس بطرس من خلالها من السجن، وبمضاهاة الموقع بما ورد بالأطالس المتخصصة، نجده يتطابق مع موقع بوابة الدباغين Tammer's Gate مضيفاً أنها كانت مغلقة وقت زيارته.

والمجموعة التالية من المزارات والكنائس التي شملتها الرحلة تقع فوق جبل الزيتون Mount of Olives حيث حدد برنارد موقع كنيسة تحمل اسم القديس يوحنا، إلا أن هذا الأمر غير ثابت. كما أشار إلى كنيسة أخرى فوق الجبل حيث المكان الذي شهد صعود السيد المسيح إلى السماء ويوجد به كنيسة دائرية غير مسقوفة ويقع مذبح تحت السماء المكشوفة في وسط الكنيسة أي في نفس مكان الصعود وعند هذا المذبح تقام الاحتفالات بالقداس ولا نجد مجالاً للشك في أن هذه الكنيسة هي مجمع كنيستي الإلونا والصعود اللتان تعدان سوياً واحدة من أهم ثلاث كنائس قام الإمبراطور قسطنطين الكبير بتشييدها في القرن الرابع الميلادي، علماً بأن كلمة إلونا تعنى باللهجة المحلية جبل الزيتون. ويجدر بالذكر أن الكنيسة التي رآها برنارد كان قد تم تجديدها نظراً لتهدم الأبنية البيزنطية القديمة (٣٥) وعند النزول من الجبل تجاه الجنوب يوجد على

(٣٤) Sacwulf. The Pilgrimage of Sacwulf, Trans. from Original Latin, by  
Rev. Canon Brownlow, in P P. T. S., voi IV, London 1891, p. 21

(٣٥) Crowfoot, J. W. Early Churches in Palestine - London 1941. pp. 29 – 31  
, CF. Also, Boase, T.S. R.. Ecclesiastical art in the Crusader states in Pales- Wes- tine and Syria, Architecture, and sculpture, in Setton K. L., vol IV, kenson 1977, p. 71.

ويضيف: كروفرت أن المنشآت المقامة فرق جبل الزيتون تعرضت للتدمير على يد الفرس عام ٦١٤م، ثم أقامها الرومان قبل الفتح الإسلامي للقدس، ولكن ما لبثت أن تهدمت فأقيمت مرة أخرى بعد ذلك، وعليه يتضح للباحث أن تشييدها الأخير كان في وقت ليس بطويل قبيل زيارة برنارد.

بعد ميل واحد موضع بیثاني Beithany وبه دير يضم كنيسة بها ضريح القديس ليعازر. St Lazarus (وهو الرجل الذي قام السيد المسيح بإحيائه بإذن الله بعد موته). كما يوجد بجواره حوض ماء، كان القديس قد اغتسل فيه. أما إلى الغرب من الجبل فقد أشار أيضاً برنارد إلى مزار عبارة عن كتلة من الرخام كان السيد المسيح قد استخدمها ليستوي على جحشه.

أما إذا ما انتقلنا إلى ما أوردته الرحلة عن المزارات والمنشآت الدينية فيما اعتبرته خارج القدس، فقد أشارت إلى ثلاث مجموعات منها: الأولى، وهي الواقعة في وادي جوزافات وتضم عدة مزارات وكنائس حيث موضع بستان الجثمانية، وهو المكان الذي شهد تعبد السيد المسيح وإلقاء القبض عليه نتيجة حادثة الخيانة. ومما يذكر في هذا الموضع أن الرومان قد شيدوا فيه كنيسة لكنها تعرضت للتخريب على يد الفرس في عام ٦١٤ م. (٣٦). ثم أشار برنارد إلى كنيسة وصفها بأنها ضخمة البناء في موضع مسقط رأس السيدة مريم، ولعله يقصد بذلك كنيسة القديسة حنا St. Anna والدة السيدة العذراء. أما الكنيسة التالية، فهي كنيسة السيدة مريم التي وصفت بأنها دائرية ويوجد بها ضريحها وهو غير مسقوف وكانت إشارة برنارد إلى الضريح قد جعلت الباحث يرجح أن المبنى الذي يعلوها هو كنيسة سيدتنا مريم Notre Dame، أما في الوادي نفسه فكانت تقع بركة سلوان (٣٧) - سالوم Siloam التي كانت محطاً لأنظار الزوار.

وعندما توجه برنارد إلى المنطقة الجنوبية من فلسطين، خارجاً من القدس ذكر مجموعة ثانية من الأبنية الدينية، حيث حظيت كنيسة المهد The Nativity في بيت لحم (۳۸) ببعض الوصف من الرحالة الأوربي حيث أشار إلى ضخامتها، وإلى سرداب في وسطها تحت الحجرة، والطريق

(٣٦) بطرس عبد الملك وآخرون: المرجع السابق، مادة حيثماني.

(۳۷) سلوان: عين تقع في وادى قدرون عند سفح الجبل، مباركة عند المسيحيين لارتباطها بمعجزة السيد المسيح بأن رد بصر الأعمى فيها وأيضاً. عند المسلمين لوقوعها في أرض القدس المباركة، وقد أضاف ابن فضل الله العمري وصفاً محدداً لها ومما أورده عنها وماؤها قليل ليس بالكثير»، راجع:

Daniel the Russian, Op. Cit., p. 38,

ابن فضل الله العمري: لمصدر السابق، ص ۲۰۹.

(۳۸) تم تشييد كنيسة المهد في عهد الإمبراطور قسطنطين الكبير، فكانت ثانى أهم البازيليكيات التي بنيت حين زيارة أمه القديسة هيلينا للأراضي المقدسة. وظلت الكنيسة محطاً للزوار والحجاج الوافدين إلى القدس ولمعرفة المزيد عن التاريخ المبكر لها، راجع:

Crowfoot, J. W., Op. Cit., pp. 22-30

إلى داخله يقع إلى الجنوب بينما الطريق إلى الخارج تقع إلى الشرق. وقد أقيم مذبح في المكان الذي أقام فيه السيد المسيح، كان الناس يفدون إليه لحضور القداس والاحتفال. ثم أشار صاحب الرحلة إلى كنيسة أطلق عليها كنيسة الشهداء، وحدد موقعها في الجنوب مباشرة من كنيسة المهد، وأخيراً أشار إلى دير يقع في الجنوب للكهنة المقدسين على بعد ميل واحد من بيت لحم ويفهم من الإشارة أن المقصود بدير الكهنة هو أحد الأديرة الكائنة بالقرب من مدينة الخليل Hebron القائم عند شجرة البلوط المعروفة بشجرة ممرى Mambre المباركة وبشر إبراهيم (ع.م) وذلك في قرية رامة الخليل، الواقعة بالقرب من الطريق الواصل بين مدينتي الخليل والقدس وعلى بعد حوالي ميلين إلى الشمال من الخليل. وكانت الشجرة والمنطقة المحيطة موضع الدير قد اكتسبت قدسيتها عند النصارى نظراً لاعتقادهم في أن إبراهيم (ع.م) استظل بظلها، حيث رأى الملائكة الثلاثة - الذين أشار إليهم النص بالكهنة المقدسين - هابطين من الطريق ليكونوا في ضيافته، ولذا حرصوا على زراعة أشجار البلوط إحياء للذكرى (۳۹)، ومما يؤكد ذلك أن إحدى الدراسات المتخصصة تذكر أن رامة الخليل كانت تضم ديراً قبل الغزو الصليبي للمدينة عام ١٠٩٩م. (٤٠)

اشتملت الرحلة أيضاً على ذكر مجموعة أخرى تضم مزارات تقع إلى الشرق من القدس وإلى غربها، ففي الشرق تم الإشارة إلى دير القديس يوحنا المعمدان الذي يطل على مياه نهر الأردن إضافة إلى العديد من الأديرة الأخرى كانت قد شيدت في المنطقة. أما في الغرب فتوجد كنيسة القديسة ماميلا St Mamella التي أقيمت في موضع يحتوى على عدد من جثث الشهداء الذين، قام المسلمون بذبحهم على حد زعم برنارد فقامت القديسة ماميلا ببذل جهد كبير لدفنهم هناك. وبينما كانت هذه البقعة قد مست قلوب الزائرين المسيحيين، تجدها قد حظيت أيضاً بمكانة رفيعة في نظر الكثير من أهالي القدس المسلمين وما جاورها إذ حرص بعضهم على دفن موتاهم فيها لاعتقادهم في أنها أرض مباركة (٤١) وجدير بالذكر أنه لم يتم العثور في المصادر المتاحة على ما أو يؤكد ادعاءات برنارد في هذا الصدد.

كذلك أبدى الحاج الأوروبي اهتماماً بالاحتفالات الدينية فحينما وصل الأراضي المقدسة، نقل لنا صوراً عما شاهده من احتفالات دينية؛ ففي بيت المقدس وعند الضريح المقدس، ذكر أن

(۳۹)Sacwulf, Op. Cit., p. 24, Daniel The Russian, Op. Cit.. p. 45, John of (PA) Wurzburg, Description of The Holy Land, Trans, by Aubrey Stewart, P.P. T. S,   
vol IV, London 1896, p. 58, Theoderich, Op. Cit, p. 53,

على الهروي: الاشارات إلى معرفة الزيارات، نشر سورد بل، دمشق ۱۹٥۳ ص ٥٩.

(٤٠) T Vigourous, F., Mambre, ca Dictionnaire de la Bible. Tome III, Paris  
1903. Cols. 633 - 634

(٤١) كثيرا ماورد في كتب التراجم خاصة عند التعرض لوفاة بعض الشخصيات المقدسية أي المنتمية إلى بيت المقدس أنهم دفنوا في ماميلا، راجع على سبيل المثال: العماد بن أبي الفلاح: شذرات الذهب في تاريخ من ذهب ۸۰ ج، بیروت ۱۹۷۹م.، أماكن متفرقة.

الزوار كانوا يحتفلون في يوم السبت المقدس أي عشية عيد الفصح إذ يبدأ القداس مبكراً في الكنيسة، وبعد الانتهاء منه يتم ترتيل الأناشيد، إلى أن يأتي ملاك يضرم النار في القناديل المتدلية ويدفع البطريرك بقبس من الضوء الناتج إلى الأساقفة ثم باقي الناس، ويعتقد برنارد أن هذا الضوء يمكنه أن يضيء المكان الذي يقف فيه كل منهم على زعم أنها كانت ناراً مقدسة كذلك أشار إلى القداديس التي تتلى في كنيستي الصعود The Ascension والمهد وكذلك في دير الكهنة المقدسين الواقع في رامة الخليل. وفي الغرب الأوروبي، تعرض برنارد إلى الاحتفالات التي تقام بمناسبة عيد القديس ميخائيل صاحب المقبرتين، حيث كنيسته الواقعة على الجبل المطل على بحر الشمال مشيراً إلى أن الطبيعة تصفو وتهدأ أمواج البحر لاستقبال الزوار القادمين للاشتراك في الاحتفالات والصلوات، زاعماً أن ذلك لا يحدث إلا في ذلك اليوم.

وبعد التعرف على المعالم الدينية والاحتفالات الخاصة بها في رحلة برنارد، ففيما يلى يتم التعرض إلى كل من العمارة الدينية والحربية فيها، ومن بين ثنايا المادة الخاصة بالمزارات والكنائس، يمكن استخلاص بعض المعلومات التي قد تشكل إضافة في إيجاد تصور ما للعمارة الدينية في المواضع والبلاد التي شملتها الرحلة؛ فقد وصفت كنيسة القديس ميخائيل عند جبل جرجانوس بأن مدخلها يقع جهة الشمال، أما في الشرق فيوجد تمثال لهذا الملاك في حين يقع المذبح الرئيسي جهة الجنوب حيث تقدم فوقه الأضاحي في حين توضع الهبات في آنية خاصة معلقة قبل الوصول إلى المذبح وفي المكان الذي يضم الآنية يوجد عدد من المذابح الأخرى، وكان المبنى رجلاً، ولكن هذا العدد الضئيل يشير إلى تواضعه. أما كنيسة القديس بطرس التي دفن فيها، فقد وصفت بأنها تحتوى على زخارف متعددة ولا توجد كنيسة أخرى في نفس حجمها في العالم أجمع، وهذا يوافق الواقع كما هو معروف.

وفي مصر، أشارت الرحلة إلى أبنية الاسكندرية الدينية: فذكرت دير القديس مرقس ودير الأربعين قديساً، إضافة إلى كنيسة القديس أثناسيوس التي كانت لاتزال باقية، وفي طريقه إلى القدس أشار الرحالة إلى كنائس تنيس القديمة وكنيسة السيدة مريم في الفرما ودير القديس جورج St. George. في الرملة دون الدخول في أي تفاصيل تمكن من التعرف على عمارتها.

أما عن منشآت القدس الدينية، فقد لقيت مزيداً من الاهتمام من قبل برنارد إذ قدم معلومات أهميتها من الأبنية اللاتينية والمكتبة والمساكن الملحقة، وكذلك كنيسة القيامة، فذكر أنها بازيليكية ترتبط باسم الامبراطور الروماني قسطنطين الكبير وأشار إلى الكنائس الثلاث الأخرى التي تكون مجمع كنيسة القيامة الكبرى وكانت كنيسة الضريح المقدس إحداها فذكر أن بها تسعة أعمدة منها أربعة في الأمام وكانت لا تفصل بين هذه الكنائس الأربعة سوى الجدران المشتركة ثم أضاف أنه توجد مساحة غير مسقوفة توسطت هذه الكنائس تغطى أرضيتها أنفس الأحجار، وطلبت الجدران بالذهب في حين تدلت أربع سلاسل من تلك الكنائس؛ والثابت تاريخياً أن كنيسة القيامة في ذلك الوقت كانت تحتفظ بملامحها البيزنطية القديمة التي يرجع معظمها إلى عهد الامبراطور قسطنطين الكبير، فبالرغم من تعرضها للتخريب على يد الفرس

حين غزوا القدس في عام ٦١٤م إلا أن المهتمين بإعادة البناء التزموا بالنسق المعماري للكنيسة القديمة فظلت تحتفظ به (٤٢) حتى زيارة برنارد لها فوصفها بهذا الشكل المختصر وبرر عدم تقديم التفاصيل بأن المؤرخ الكنسي الإنجليزي بيده Boda قد أورد ذلك تفصيلياً في كتابه (٤٣)، ومما يؤكد وصف برنارد بأن الأبنية طليت بالذهب ما ذكر على لسان الرحالة المسلم ناصر خسرو (٤٤) الذي شاهد الكنيسة من بعده بحوالي مئة وثمانين عاماً.

أما في خارج القدس فقد كانت المعلومات شحيحة عن العمران الكنسي، ففي حين قدم الرحالة الأوربي نبذة عن كنائس: صهيون والقديسة حنة والسيدة مريم والصعود والمهد نستشف من خلالها الكنيسة أو شكلها العام، نجد أنه لم يتطرق إلا بذكر الاسم والموقع لبعض الأبنية والأماكن الدينية الأخرى كما هو الحال بالنسبة للكنائس: القديس ستيفن والقديس بطرس والجثمانية والشهداء والقديسة ماميلا، إضافة إلى دير القديس ليعازر في بثيانى والدير الواقع من رامة الخليل ودير القديس يوحنا المعمدان.

وفيما يختص بالعمارة الحربية، فيلاحظ أن برنارد الحكيم لم يهتم كثيراً بهذا الجانب إذ إنه لم يتعرض إليه إلا نادراً، وأبرز ما ذكر في ذلك الصدد ما أورده باقتضاب عن مناعة مدينة باري الساحلية وتحصيناتها، إذ ذكر إنها محصنة بسورين سميكين من الناحية الجنوبية أما الشمالية فكانت محصنة بشكل طبيعي حيث يحدها البحر، وفضلاً عن ذلك فهي مرتفعة عن البحر، الأمر الذي يجعلها تشرف في يسر على الساحل المجاور، ولعل إشارة برنارد الحكيم تلك تجعلنا نفسر ما أورده بعض المؤرخين عن قدرة المدينة في عام ٨٥٢م على مواجهة حصار الامبراطور

Virgilio, C., Corbo O.F.M., il Santo Sepeler di Gerusalemme, (٤٢)   
Aspetti as thealagici dalle arigini al periado craciate, Franciscan Printing  
Pren Je-rusalem, III vols., 1981, vol I, pp. 223 - 228

Bede's Ecclesiastical History of the English People, ed. Bertram(٤٣)   
Colgrave and R. A. B. Mynors (Oxford Clarendon Press, 1969)

ولد (بيدة) بالقرب من دير وبرماوث Wear mouth في شمال شرق إنجلترا، ووضع تحت رعاية الرهبان منذ السابعة من عمره، ثم انتقل إلى دير چارو Jarrow وفيه قضى معظم حياته، حيث نشأ وظهر طالباً للعلم وراهبا ومعلماً وكاتباً فقد عاش ومات قديساً بعد أن أصبح المؤرخ الأول لأوروبا في العصور الوسطى، ومعلمها في تعيين التواريخ الدقيقة، للأحداث وترتيبها وفقاً لتسلسلها الزمني. وأشتهر بتأريخيه للكنيسة ولسير القديسين، وعرف بين أقرانه باسم «بيدة المبجل The venerable Bede وتوفي في عام ٧٣٥م، راجع:

Ibid. Preface pp. 3-9

(٤٤) ناصرو خسرو: سفر نامة. تعريب وتحقيق يحيى الخشاب، ط ١، القاهرة ١٣٤٦ هـ / ١٩٤٥ م، ص ٣٦ - ٣٧.

الكارولنجي لويس الثاني (٤٥). ومن ثم فهذه الأحداث تتيح الفرصة في الاعتقاد بأن الحاكم المسلم في بارى أسرع في تدعيم دفاعاته وتقوية السورين المذكورين حتى لفتت تحصيناته أنظار برنارد فذكرها وذلك ضمن الاستعدادات الواجب اتخاذها في مثل تلك الظروف الحربية، حيث كانت المنطقة تعانى من الصراعات السياسية بين عدة قوي للسيادة عليها.

وفي إطار الحديث عن العمارة الحربية، فقد وردت إشارات في الرحلة أيضاً عن مدن ساحلية أخرى حيث مدينة الإسكندرية بيد أن مدون الرحلة اكتفى بذكر بابين فقط من أبوابها القديمة، وهما الباب الشرقي والباب الغربي، برغم أن أحمد بن طولون كان قد أبدى اهتماماً واضحاً بتجديد أسوار الإسكندرية وبواباتها، إلا أن هذا الاهتمام جاء في مرحلة تالية بعد أحداث الرحلة التي تمت في السنوات الأولى من حكمه، ومن ثم كانت المدينة لاتزال تحتفظ حينها بتخطيطها في العصرين اليوناني والروماني بشكل أساسي: وعليه يعتقد الباحث أن تكون هاتين البوابتين هما بوابة رشيد الواقعة عند بوابة الطريق العرضي الرئيسي الذي يعرف باسم المحجة العظمي، والذي يمتد إلى البوابة الثانية غرباً المعروفة باسم القرافة، ومما يؤكد أن البوابة الشرقية - التي ذكرها برنارد - هي ذاتها بوابة رشيد تطابق موقع كنيسة القديس مرقس الذي أورد برنارد موقعها عند البوابة الشرقية مع ما أثبته الباحثون الحديثون فيما يختص بموقع بوابة رشيد (٤٦)

وفيما يختص بالجانب الاقتصادي في رحلة برنارد الحكيم فإن النشاط التجاري يعد أهم ما انطوت عليه في هذا المجال: فبداية نبهنا إلى المكانة الكبيرة التي احتلها ميناء تارنتيوم الإسلامي بين الموانئ. الايطالية فيما يتعلق بحركة النقل البحري والعلاقات التجارية بين أوروبا ومنطقة الشرق الأدنى الإسلامي زمن الرحلة. وفضلاً. ذلك أكد على أهمية ميناء الإسكندرية التي كانت منتهي رحلة الذهاب البحرية، ولم يكن ذلك من فراغ، فمن المعروف أن الإسكندرية في ذلك العصر كانت غالباً ما تمثل حلقة الوصل بين تجارة الأسواق الشرقية حيث الصين والهند والبحر الأحمر بموانئ أوروبا في الغرب (٤٧). لكن الحاج الأوروبي اقتصر في

(٤٥) Oman, C. H.,Op. Cit. p. 452, Bury, J. B, Op. Cit., p. 315

راجع أيضاً: أرشيبالد. ر. لويس: المرجع السابق، ص ۲۱۸.

(٤٦) تقع بوابة رشيد في طريق الحرية قرب التقائه بشارع الشهيد صلاح مصطفي (السلطان حسين سابقاً) من اليمين وشارع بلجيكا من اليسار. وكانت هذه البوابة هي البوابة الرئيسية التي يدخل منها القادم من الفسطاط، راجع: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الاسكندرية ١٩٨٢م.، ص ٤٤٤ – ٤٤٨

(٤٧) اشتهرت الإسكندرية منذ العصر البطلمي بصفتها قاعدة رئيسية للتجارة البحرية، ففاقت موانئ مصر الأخرى في هذا المجال، إذ كفلت لها ترعة شيديا الاتصال المباشر بطريق القوافل إلى مصر العليا مروراً بالنيل، كما كانت تستقبل ما تحتاج إليه مصر من العالم الخارجي وتصدر الفائض من ثرواتها وكذلك ما يفد إليها من إفريقيا والشرق، راجع: لطفي عبد الوهاب: عصر البطالمة، الإسكندرية = =

هذا الموضع على التحدث عن تجارة الرقيق ذاكراً أن مسلمي جنوب إيطاليا قاموا بنقل مجموعات من اللمبارديين، كانوا قد وقعوا أسرى خلال الحروب مع بنفنتيو إلى تارينتيوم بلغت أعدادهم تسعة آلاف أسير قسمت إلى ثلاث مجموعات، كل مجموعة تضم ثلاث آلاف نقلت كل منها إلى موانئ: تونس وطرابلس الغرب والإسكندرية، مكملاً لما أورده الرحالة المسلم المعاصر ابن خردذابة في هذا الصدد الذي ذكر أن التجار اليهود كانوا يجلبون من الغرب حيث بلاد الفرنجة، الخدم والجواري والغلمان وكثيراً من السلع الأخرى إلى مصر، ومنها تنتقل إلى ما يليها من بلاد (٤٨). وعليه يتضح أن الأسري الذين شاهدهم برنارد ما هم إلا رقيق من النوع الأبيض. أما تقسيمهم إلى مجموعات ثلاث على هذا النحو فكان بغرض الحصول على أعلى قيمة تدفع مقابل هذه الأعداد بتوزيعها على عدة أسواق.

وفيما يتعلق بالناحية الاقتصادية أيضاً أمدتنا رحلة برنارد بمعلومات مهمة عن الطرق التجارية المعروفة في ذلك الوقت، إذ أشار إلى الطريق البرى بين جبل جرجانوس في الشمال وبارى وقدره بمائة وخمسين ميلاً. كما ذكر أنه انتقل من بارى إلى تارينتيوم عبر طريق قدر طوله بتسعين ميلاً ولم يحدد وسيلة الانتقال بين هذين المينا بين البحريين، إلا إنه من الواضح أنه انتقل بينهما عن طريق البر وليس البحر، إذ إن المسافة المذكورة بينهما تقارب الواقع براً، في حين أن الطريق البحرى يبلغ أضعاف هذه المسافة. أما الطرق البحرية التي أشار إليها فتبدأ من تارينتيوم حيث تنتهي إلى: افريقيا وتونس وطرابلس والإسكندرية، وقد استغرقت رحلته عبر الطريق الأخير مدة ثلاثين يوماً. وفضلاً عن ذلك استخدم صاحب الرحلة النيل في انتقاله من الإسكندرية إلى الفسطاط صعوداً ومنها إلى دمياط هبوطاً، فامتدت رحلة الذهاب إلى ستة أيام، في حين استغرقت رحلة العودة إلى دمياط ما يزيد على ثلاثة أيام.

وإضافة إلى هذه الطرق البحرية والنهرية، تعرض برنارد إلى الطريق البري الذي يربط مصر ببلاد الشام، الذي سلكه هو ورفيقاه إلى فلسطين، فبعد مغادرته تنيس، وصل إلى مدينة الفرما ومنها إلى العريش وغزة والرملة وعمواس ثم إلى مدينة بيت المقدس، ويتبين من ذلك أنه سلك طريقاً داخلياً يخترق الأودية التي لا تغمرها مياه المطر إلا شتاء، وكان يقع بين طريق يافا القدس إلى الشمال منه، والطريق الواصل بين الرملة فالخليل فبيت لحم فالقدس، الواقع إلى الجنوب. أما عن أولى محطاته، فهي الفرما حيث يذكر عنها أنها ضمت مركزاً لتجمع الجمال التي يؤجرها الأهالي للغرباء لحمل أمتعتهم تحسباً لرحلة تبلغ ستة أيام عبر الصحراء، وهي

= = ٣٠٢. والثابت أن المدينة حافظت على وضعها المتميز طيلة القرون، ويرغم اضمحلالها نسبياً قبل حلول القرن الرابع عشر الميلادي / الثامن الهجري إلا أن ابن فضل الله العمري، وصفها في هذا الوقت قائلاً: «والإسكندرية هي فرضة الغرب والأندلس وجزائر الفرنج وبلاد الروم وإليها ترد شوانيها وتجلب بضائعها ومنها تخرج أغراضها»، راجع: المصدر السابق، ص ١٥١

(٤٨) ابن خردذابة: المسالك والممالك، ليدن ۱۸۸۹م، ص ١٥٣ - ١٥٤.

المدة التي تستغرقها الرحلة من الفرما إلى العريش، وقد نوه المؤرخ المسلم المتأخر نسبياً المقريزي غير مرة إلى هذا الطريق باسم طريق الرمل الممتد قرب الساحل ابتداء من الفرما وصولاً إلى العريش فغزة ومنها إلى سائر الشام، في حين أكد الرحالة ابن خردذابة على أهمية مدينة الفرما كميناء بحرى وكثغر حربى يسمح بدخول وخروج السفن كما يذكر المقدسي البشاري أنها: «عامرة، آهلة، عليها حصن ولها أسواق حسنة» (٤٩). كل هذا جعل من الفرما محطة تجارية هامة انطلقت منها القوافل التي تعبر شبه جزيرة سيناء جهة الشمال الموازي الساحل البحر المتوسط.

ومن معالم طريق الرمل، يسجل برنارد وجود نزلين أو دارين للضيافة يقعان في وسط الطريق وذكر اسميهما: الباتشارا Albachara والبارا Albara، وأنه كان بجوارهما بائعون يمدون المسافرين بما يلزمهم من حاجيات وكانوا من المسيحيين والمسلمين إلا أنه ينبغي التعرف على موقع كل من هذين النزلين، فلعل موقع الباتشارا يطابق المنطقة الأثرية بتاشوينوس الواقعة على الطريق الساحلي جنوب شرقي بحيرة البردويل، في حين نجد مسمى البارا قريباً نسبياً من رأس بارون الواقع على الشريط اليابس بين بحيرة البردويل والبحر المتوسط (٥٠) ، وعليه يتبين أن الدولة العباسية حرصت على تنشيط حركة التجارة على طريق الرمل الحيوي، بغية ربط أوصالها المترامية بأن أحاطت هذين النزلين برعايتها خدمة للمسافرين، وثمة ظاهرة أشارت الرحلة إليها تتمثل في أن الأقباط كانوا لا يزالوا يلعبون دوراً ما في مجال التجارة داخل المجتمع المصري الإسلامي.

أما عن الأسواق، فيذكر برنارد الحكيم أن أحدها كان يقع أمام بيت الضيافة الذي نزل فيه في بيت المقدس وأن المشرف على السوق كان يتلقى قطعتين ذهبيتين (أي دينارين) كل عام من كل شخص يقيم به؛ وتوضيحا للأمر فبمراجعة المراجع يتبين أن من يقوم بمهمة الإشراف على الأسواق في الدولة الإسلامية كان يعتلى منصب المحتسب وهو منصب قضائي. شهد تطوراً فيما أوكل إليه من مهام، فبعد أن كان منصباً دينياً أخلاقياً غدا يقوم بخدمات اجتماعية اقتصادية، ثم ما لبث أن تطور بتطور الحياة في المدن فأصبح اقتصادياً بالدرجة الأولى، يهتم بالإشراف

(٤٩) المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، القاهرة ١٣٢٤ هـ.، جـ ۲، ص ۲۰۰: ابن خردذابة: المصدر السابق، ص ١٥٣: المقدسي البشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط ٣، القاهرة ۱۹۹۱ م، ص ۱۹٥.

(٥٠) أحمد فخرى: تاريخ شبه جزيرة سيناء منذ أقدم العصور حتى ظهور الإسلام، نشرت في موسوعة سيناء، القاهرة ۱۹۸۲م، ص ٦٧ - ١٢٣: وجدير بالذكر الاشارة إلى أن هناك اعتقاداً أن للإسميين مدلول لغوى فاسم الباتشارا يعنى البكرة، أما البارا فتعنى البر، وربما يعنيان: البحر والبر، ویری چون ولكنسون أن الموقعين قد یكونا دیري:: كاسيوس Casius وأوستراكين Ostrakine، راجع:

Wright, T., Op. Cit, p. 25, no. 2. Tobler, T. Dictionnaire de la Terre - Sainte,

Paris 1969, p. 405, Wilkinson, J., Op. Cit, p. 149.

على الأسواق وصحة الموازين والمكاييل ومنع الغش، ويستند في عمله إلى مجموعة من العرفاء بصفتهم معاونين له. وفي كثير من الأحيان كان يطلق على عامل الحسبة اسم والى السوق أو صاحب السوق (٥۱). وهكذا نجد برنارد قد مس مرة أخرى جانبا من النظم الإدارية التي سادت المجتمع الإسلامي في ظل الخلافة العباسية ذات السيادة، حينما فطن إلى ما يجتبيه المحتسب من ضريبة على أصحاب المحال التجارية في السوق الإسلامي.

أما عن وسائل النقل المستخدمة زمن الرحلة، فنجد بها إشارات إليها ومن ذلك السفن الست التي بلغت حمولة كل منها ألفاً وخمسمائة راكب واستقل أفرادها واحدة منها، تولى قيادتها قبطان على رأس ستين ملاحاً قام بالإشراف على كل شيء حتى التعامل مع الزوار الثلاثة. وهذه المواصفات التي قدمها برنارد عن السفن تقترب في وصفها من السفن الحربية الضخمة المعروفة باسم الشيني أو الشيني الغزوانية التي أشار إليها معجم السفن الإسلامية، وذكر أن بها حوالي مائة وأربعين مجدافاً وتحمل أحياناً ألفاً من المحاربين وكان يقام فيها الأبراج وصهاريج للماء ومخازن للحبوب وهي بذلك معدة لأعمال الهجوم والدفاع (٥٢). أما حينما ارتحل الثلاثة عن الإسكندرية إلى الفسطاط نجدهم استخدموا إحدى السفن بالنيل وكان النوع السائد منها يعرف بمسمى المراكب النيلية لاقتصارها على المرور في النيل والترع المتفرعة لنقل التجارة أو المسافرين، وقد قال المقريزي عنها: «وأما المراكب النيلية فإنها تنشأ لتمر في النيل صاعدة إلى أعلى الصعيد ومتحدرة إلى أسفل الأرض لحمل الغلال وغيرها (٥٣)» وفي البر كانت الجمال الوسيلة المستخدمة للوصول إلى القدس.

وإذ نحن لا زلنا بصدد تناول النواحي الاقتصادية، نجد ذكراً للعملة في رواية برنارد إذ تطرق إلى الحديث عنها في عدة مواضع؛ فذكر القطع الذهبية من دينار وصولدي Solidi (٥٤)

(٥۱) حسن إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي السياسي، القاهرة ١٩٦٢م، ج ۲، ص ۲۹٥: راجع أيضاً: السيد عبد العزيز سالم: العصر العباسي الأول. ۲۷۷ - ۲۷۸: ولمزيد من التفاصيل، انظر: سهام مصطفى أبو زيد: الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي، القاهرة ١٩٨٦م، ص ٤٢ -، ص

(٥٢) درويش النخيلي: السفن الإسلامية على حروف المعجم، جامعة الإسكندرية ١٩٧٤م.، مادة شيني، ص. ٣ –

(٥٣) المقريزي: المصدر السابق، ج ۲، ص ۱۸۹، ۹۹٥: راجع أيضاً: درويش النخيلي، المرجع السابق، ص.101

(٥٤) لفظة دينار مشتقة من اللفظة اليونانية اللاتينية Denarius - Aureus، وهو اسم وحدة من وحدات السكة الذهبية عند العرب قبل الإسلام وبعده، وضبط الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في عام ٧٤ هـ / ٦٩٣ عيار هذه السكة الذهبية بحيث أصبح الوزن الشرعي للدينار الإسلامي ٤,۲٥ جرام، عيار ٤/٢٣٣ قيراط.

واختفت الصور من نقوشه واستبدلت بالعبارات التي تشير إلى شهادة التوحيد والرسالة المحمدية وتاريخ الضرب

انظر: عبد الرحمن فهمي محمد: النقود العربية ماضيها وحاضرها، القاهرة ١٩٦٤ م.، ص ٨ - ٩ = =،

والثابت أن التعامل بهذه العملات كان قد ساد الجنوب الإيطالي إذ عرفت بنفنتيو على سبيل المثال الصولدي الذهبي قبل الغزو الكارولنجي ٧٧٤ وظلت بعد ذلك تتعامل بالصولدي الخاص بها وما لبثت أن تأثرت بالغزو، فعرفت الدينار الفضي الكارولنجي، وسرعان ما أحيى التعامل الصولدي الذهبي: ولكنه هبط بما يزيد عن الثلث في قبعته حتى استيلاء لويس الثاني الكارولنجي عام ٨٦٦م على المدينة ففرض التعامل بالدينار الخاص به (٥٥). وعلى كل، فمن الملاحظ أن العملات الواردة في الرواية خضعت للتعامل بين أفراد الرحلة ومسلمي المنطقة الذين كان لديهم عملتهم المعروفة بالدنانير الذهبية العباسية التي ظلت متداولة في كل من مصر والشام وقت الرحلة حتى استبدلت بدنانير ابن طولون الأحمدية في عام ۸۸۰ م/ ٢٦٦ هـ. بعد توحيد مصر والشام (٥٦)، وعليه كان من الضروري وزن القطع الذهبية التي في حوزة الزوار لتقييمها. وهذا ما أشار إليه برنارد بالفعل ذاكراً أنه من عادة المسلمين معادلة العملات الأجنبية (التي معهم بالعملات المحلية بالإسكندرية حيث تم معادلة الستة صولدات والسنة دينارات من عملتهم بثلاثة صولدات وثلاثة دنانير من العملة المحلية، وهذه القاعدة الاقتصادية أثبتها المؤرخ الشهير عبد الرحمن ابن خلدون حين أورد لزوم وجود معيار تقييما لقيمة العملة «على أن يتم التعامل بها بعد ذلك عدداً فإن لم تقدر أشخاصها يكون بها وزناً» (٥٧) ونخلص من هذا إلى أن العملة الإسلامية العباسية كانت قوية بالقدر الذي أصبحت به تعادل ضعف مثيلتها التي كانت في حوزة الزوار القادمين من أوربا الغربية.

أثارت المعاملات النقدية لدى برنارد وزميليه إحساساً بأنهم تعرضوا للابتزاز من السلطات الإسلامية، وأشار صاحب الرحلة إلى ذلك غير مرة، بل أفصح صراحة عنها أخيراً كما ورد في النص. ولنا هنا وقفة للتعرف على المواقف التي جعلت هذا الإحساس يتسرب إليهم: ويتلخص الموقف الأول في أن الحجاج اتهموا قبطان السفينة التي نقلتهم من تارينتوم إلى الاسكندرية بأنه منعهم من الهبوط إلى الشاطئ، ولكن حين أعطيناه ست قطع ذهبية سنحت أمامنا الفرصة المنزول إلى البر بعد أن تم السماح لنا بذلك» أما الموقف الثاني فعندما قابل الحجاج الثلاثة حاكم

= = أما الصولدى فهي عملة رومانية ذهبية قديمة استبدلت بعملة النومسما Nonicsina في الامبراطورية البيزنطية في العصور الوسطى التي أطلق عليها فيما بعد بيزنت، Besant كانت تتصنع باستقرار قيمتها الذهبية وتتفاوت وزنها الحقيقي بين ٤٠٤٤٠٣,٨٨ جرام من الذهب. ولمعرفة المزيد عن هذه العملة، راجع: عزيز سوریال عطية: المرجع السابق، ص ۲۷۱، وقد عبر النشر، ولكنسون عن العملتين في النص باستخدام لفظي الجنيه guineas والشلنج Shilling وهو ما نجزاً عن الجنيه، ربما لرغبته في تقريب الصورة للقارئ. (00) Christic Neil, Op. Cit., pp. 219 - 220.

(٦) على إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، القاهرة ١٩٤٧م.. ص ۲۹۹: عبد الرحمن فهمي: المرجع السابق، ص ٥٥.

(٥٧) ابن خلدون: المقدمة الفصل السادس والثلاثون في شارات الملك والسلطان الخاصة به، القاهرة ١٣٤٨ هـ / ١٩٣٠ م، ص ۲۱۸

الإسكندرية وسلموه خطاب سلطان الذي يحمل وصفاً لأشخاصهم وهوياتهم «لم يحرك ساكنا حياله برغم أنه لم ينكر محتواه وأمام هذا الموقف قام كل منا بإعطائه ثلاثمائة دينار أخذها لنفسه، وحينئذ قام بتحرير خطابات لنا لتقديمها إلى حاكم بابلونيا» (الفسطاط). أما الموقف الأخير فيقول برنارد عنه: « وبمجرد أن وصلنا إلى المدينة قادنا حراسها إلى الحاكم ( ابن طولون ذكره باسم أدلشام (Adelacham) فسألنا عن هدف رحلتنا وعن الأمراء الذين نحمل خطابات منهم؛ ولذا أريناه خطابات كل من: سلطان ... وحاكم الإسكندرية ولكنها لم تنفعنا بشيء وعليه قام بإيداعنا السجن، وبعد ستة أيام خطر ببالنا بعون من الله، بأن يعطى كل منا هذا الحاكم مبلغ ثلاثمائة دينار كما حدث في المرة السابقة، وحينئذ قام الحاكم بمنحنا خطابات لم يجرؤ أحد شاهدها في أي مكان أو مدينة على أن يبتزنا مرة أخرى ... غير أنه حينما كنا ندخل أيا من المدن التي سيلى ذكرها لم يصرح لنا بالخروج منها إلا بعد الحصول على تصريح مكتوب على إحدى الرقائق مقابل دينار أو دينارين».

وبعد استعراض هذه المواقف من واقع كتابات صاحب الرحلة يتبين أن الشرق الإسلامي عرف نظماً إدارية دقيقة لم يكن الأوربيون يألفونها فأسيئ فهمها من قبلهم وأعدوها نوعا من الابتزاز إذ يذكر المؤرخ المسلم المعاصر ابن الداية المتوفي حوالى ٣٣٠هـ / ٩٤١م، أن موسى أخو أحمد بن طولون طلب منه جوازاً للسفر بترك الديار المصرية. وفي موضع آخر ذكر المؤرخ رواية فحواها أن تاجراً أراد أن يجتاز الحدود عند العريش ومعه خادمه بجواز سفر واحد للتاجر، فاستوقفه حبيب المعرى مسئول الجمارك لاعتقاده أن الخادم يلزمه جواز سفر مستقل، وبعد مقابلة التاجر مع أحمد بن طولون تم استخراج جواز سفر قانوني مستقل للخادم (٥٨). وعلى هذا ترى إحدى الباحثات أن حكومة أحمد بن طولون كان لديها إدارة الجوازات السفر والجمارك (٥٩)، ومن ثم تجد بين أيدينا دليلين يؤكدان على أن مصر عرفت ضوابط داخلية تنظم حركة المسافرين منها أما عن الضوابط التي تنظم حركة الوافدين إليها، وانتقالات الأجانب الداخلية وانطلاقاً منها، فيمكن الوقوف خلال ما أورده الراهب برنارد من المعلومات المتصلة بهذا الشأن.

لعل إدراك واقع التنظيم الإداري والجمارك وحركة الانتقال في مصر على هذا النحو يعطى الفرصة لفهم المواقف التي تعرض لها برنارد ورفيقاه على حقيقتها، كما يمكننا من خلالها التعرف على جانب من القواعد المتبعة للتعامل مع الأجانب الوافدين؛ ففيما يختص بالموقف الأول فالواضح أن قيامهم بدفع ست قطع ذهبية إلى قائد السفينة كان بمثابة أجرة نقلهم على السفينة عن رحلة امتدت من تارينتوم حتى الإسكندرية إذ إنه عاملهم بصفتهم ركاباً ليسوا كبقية من كانوا على ظهر السفينة من الأسرى المعفيين بالطبع من دفع الأجرة، أما الموقف الثاني

(٥٨) ابن الداية: سيرة أحمد بن طولون، نشره فولرز منجار، عام ۱۸۹٥م.

(٥٩) سيدة إسماعيل الكاشف: أحمد بن طولون. القاهرة ١٩٦٥م، ص ۱۷۷ - ۱۷۸

فإن دفع مبلغ ثلاثمائة ديناراً (الذي عدله الناشر ولكنسون وجعله ثلاثين ديناراً) إلى إسحق بن دينار والى الإسكندرية كان عبارة عن تحصيل رسوم تجبى من زوار الإسكندرية الأجانب للسماح لهم بالدخول، وللحصول على خطابات موجهة إلى أحمد بن طولون والي الفسطاط، إلا أنهم ظنوا في أن والي الإسكندرية حصل هذه الأموال لنفسه. أما الموقف الثالث وهو عندما اضطروا لدفع مبلغ ثلاثمائة دينار أخرى عن كل منهم (عدله ولكنسون وجعله ثلاث عشرة ديناراً) إلى والى الفسطاط، فيرجح أنه أمر ضروري استكمالاً لإجراءات الحصول على تصريح نهائي يخول لهم حرية الحركة في البلاد التي يرغبون في زيارتها، بدليل أن برنارد نفسه أمر بأن أحدا لم يجرؤ بعدها على ابتزازهم مرة أخرى، ولا يفوتنا في هذا الموضع الإشارة إلى الأوضاع داخل مصر، إذ كان والى الإسكندرية ابن دينار لم يخضع بعد لسيادة أحمد بن طولون، الأمر الذي أوجد ازدواجية في التعامل مع الزوار الأجانب في كلتا الولايتين. وبينما تنتهي الاجراءات مع هؤلاء الأجانب على هذا النحو، كان عليهم الخضوع للنظم الإدارية المحلية التي تقضى بدفع الرسوم الزهيدة التي قدرها الحاج الأوربي بدينار أو اثنين للانتقال من مدينة إلى أخرى في البلاد الإسلامية في أثناء الرحلة بعد مغادرتهم للفسطاط.

أما الزراعة فقد أرجى الحديث عنها ضمن الجانب الاقتصادي، إذ بالرغم كونها الدعامة الأساسية لاقتصاديات مصر في هذا العصر، فإنها لم تحظ إلا بقدر يسير من اهتمامات برنارد الحكيم في مدونته، إذ اكتفي بالإشارة إلى حقيقة أن النيل أو جيحون - حسبما أورد - هو الذي يروى مصر، ثم تعرض إلى منطقة شمال سيناء وهو في طريقه إلى فلسطين ذاكراً أنها مقفرة ليس بها أي من المحاصيل أو الأعشاب، ولا تنتج إلا النخيل الذي رآه أبيض كما الحال هو في البلاد التي يغطيها الجليد. والواضح أن برنارد اجتاز الصحراء في وقت الربيع حينما تنشط الرياح بها، محملة بالرمال والأتربة التي كست النخيل بلونها الأبيض الأمر الذي جعله يقرن بين الأمرين، أما مدينة غزة، فقد سجل عنها برنارد أنها بلدة مثمرة غنية للغاية بكل المنتجات.

وننتقل في صفحات البحث التالية إلى دراسة ماورد في رحلة الراهب برنارد فيما يختص بالنواحي الاجتماعية؛ إذ تعرض في حديثه إلى أهل الذمة من المسيحيين داخل المجتمع الإسلامي في مصر وفلسطين. وبرغم أنه عنى في حديثه بطائفة الكاثوليك منهم بالإشارة إلى بطريركهم المنتخب في كنيسة الجليل ميخائيل بالفسطاط إلا أن سياق الرحلة فيما بعد يتعرض للحديث عن المسيحيين بطوائفهم المختلفة في المجتمع الإسلامي في معظم الأحوال. ولعل في وجود نظام اجتماعی قائم على وجود بطريرك يشرف على المسيحيين، ما يؤكد تسامح الحكام المسلمين حيالهم حتى أنهم أبقوا على كثير من الأنظمة التي ألفوها من قبل الفتح، وهذا ما أكد عليه أيضاً المؤرخ النصراني يحيى بن سعيد الأنطاكي، ومما يذكره في هذا الصدد، بقاء أنشطة المسيحيين الاجتماعية والدينية حتى زمن الرحلة وما بعدها تحت إشراف من بطريرك حصن بابيلون في كنيسة الجليل ميخائيل وبطريرك الإسكندرية (٦٠).

(٦٠) يحيى بن سعيد الأنطاكي: المصدر السابق، ص ۲۳.

كذلك عنى صاحب الرحلة بالتعرض إلى بعض مراكز تجمع المسيحيين وأنشطتهم في المدن التي مر بها، فحينما قصد تنيس وصفها بأنها مدينة يسكنها مسيحيون دفعهم تدينهم إلى أن ينزعوا إلى حسن الضيافة والكرم الشديد، كما أن بها عدداً من الكنائس سجلت المصادر اسم اثنتين منها وهما: كنيسة أبي جبلة «وهي كنيسة أهل الملة الجامعة التي الأسقف نازل بها»، وكنيسة أبى مينا التي قام أسقفها المعروف باسم «ثاوفيلس بن الشقي» في عام ٩٣٩ م/ ۳۲۸ هـ، بترميمها ووقف الأوقاف عليها الأمر الذي يوحى بوجودها وقت الرحلة. وفي مدينة الفرما ذكر برنارد أن بها كنيسة مريم المباركة، وجدير بالذكر أن هذه الكنيسة تضم كرسي أسقفي. ولعل هذا المركز الديني للمدينة هو الذي شجع القبط على سكناها وفقاً لما أورده ياقوت الحموي (٦١) وأخيراً فالرحلة تشير إلى مجتمع مسيحي آخر وهم الذين عملوا كبائعين عند نزلي البتشارا والبارا على طريق الفرما -- العريش. وفي بيت المقدس سجل الرحالة ملحوظاته عن المسيحيين فيها من أن الوالي العباسي عليها (وهو أحمد بن عيسى) كان يسمح لكل من يتحدث اللسان اليوناني ويرغب في التعبد بالوفود إليها، وهو بذلك يقصد الزوار القادمين من أرجاء أوروبا وخاصة من بلاد الامبراطورية البيزنطية، نظراً لأنها عادة ما كانت تشرف على كنيسة القيامة بتصريح من الخليفة العباسي. ومن ناحية أخرى، فتنصيب بطريرك، يتم اختياره للمدينة يشرف على الشئون الدينية للأهالي من المسيحيين فيها، يؤكد على وجود مجتمع لهم في فلسطين وخاصةً في القدس.

تعرضت الرحلة أيضاً إلى جانب اجتماعي آخر مهم، ألا وهو ما يتعلق بالضريبة الواجب على أهل الذمة دفعها، وعرفت في المجتمع الإسلامي بالجزية، إذ ورد بالرحلة أنه كان هناك قانون يسرى على كل من المسيحيين وكذلك ما أسماهم صاحبها بالوثنيين Jentiles، يقضى بأن يدفع كل شخص عن نفسه ضريبة سنوية إلى السلطات، ممثلة في الوالي مقابل أن يبقى آمناً وحراً، وقد قدر برنارد هذه الجزية بواحدة أو اثنتين أو ثلاث قطع ذهبية أي دنانير ذهبية. وقد أثبتت المصادر الإسلامية صحة هذه المعلومات إلى حد كبير، بيد أنها أوضحت أن أقباط مصر كانوا يدفعون هذا القدر من الجزية طبقاً لطبقاتهم الثلاث: دنيا ووسطى وعليا (٦٢)، وهنا ينبغي الإشارة إلى أن رؤية الحاج الأوروبي للمجتمع المصري هذه قد بناها في أثناء زيارته، في وقت كانت البلاد فيه تمر بظروف سياسية واجتماعية غير مستقرة. إذ واكبت الفترة الانتقالية بين عزل ابن المدير المتعسف في جمعة للضرائب، وقدوم عامل الخراج الجديد محمد بن هلال، وولاية ابن طولون الذي خفف الكثير منها (٦٣)، غير أنه يبقى أن نجد تفسيراً لما ذكرته الرحلة

(٦١) يحيى بن سعيد الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٣ - ٢٤، ٢٧: ياقوت الحموي: المصدر السابق. ج ٤، ص ٢٥٦

(٦٢) أبو يوسف: كتاب الخراج، القاهرة، ۱۳۰۲ هـ، ص ٦۹؛ الماوردي: الأحكام السلطانية، القاهرة، ۱۳۲۸ هـ. ص ۱۲۸

(٦٣) ابن الداية: المصدر السابق، ص ۱۱، ۳۳: ٦٤: المقريزي: المصدر السابق، ج ۱ ، ص ۱۰۳، ۱۰۷ - ۱۰۹.  
ج ۲، ص ٢٦٧

فيما يختص بالوثنيين، فهل المقصود بهم اليهود، أم الروم الأرثوذكس ،أم المسلمون أنفسهم أو غيرهم، أيا كان الأمر فالإسلام تعامل. هذه القضية بوضوح، إذ وفقاً لأحكام شرعية، كان على جميع أهل الذمة مسيحيين ويهود بشتى طوائفهم دفع الجزية في حين يعفي المسلمون منها.

ثم واصل برنارد حديثه عن موضوع الجزية قائلاً: «وفي حالة ما إذا كان المسيحى من الطبقة الدنيا، فكان عليه أن يدفع ثلاثة عشر ديناراً، أما إذا لم يتمكن من دفع هذه الثلاثة عشر ديناراً فيودع السجن سواء أكان من أهل البلد أم كان مسيحياً أجنبياً ويظل قابعاً فيه حتى يرسل له الله ملاكه ليقبض روحه أو أن يتولى مسيحيون خيرون آخرون إخراجه». ولعل هذه العبارات تعكس عدم استيعاب صاحب الرحلة قضية الجزية، فليس من المنطقي أن يدفع المسيحي المعدم مبلغ ثلاثة عشر ديناراً وهو يشكل أضعاف ما أورده الرحالة نفسه سالفاً، بيد أنه بالرجوع إلى العديد من الرحلات المدونة لأوربيين جاءوا لزيارة مصر تم العثور على ما قد يكون تفسيراً لما أورده برنارد ولم يستوعبه، فقد ذكر رحالة من ربيي اليهود يدعى مسلم بن الرابي مناحم أوف فولتيرا الذي قدم إلى مصر في سياحة دينية عام ١٤٨١م. أن المسيحي الأوروبي كان عليه أن يدفع مبلغ ثلاثة عشر من الدوكات Ducats الذهبية إلى السلطات المصرية نظير دخوله الديار (٦٤)، وعليه يتضح أن مبلغ ثلاثة عشر ديناراً التي أشار إليها برنارد بوجوب دفعها من قبل القبطي أو المسيحى الأجنبي كانت قاصرة على الزوار الأوروبيين دون أهل البلد، وبذلك بدا هذا الحاج الأوروبي غير دقيق مرة أخرى فيما يتعلق بقضية الجزية حتى أنه تخيل أوضاعاً غير حقيقية.

وبرغم عدم إدراك برنارد لكثير من الأمور الدقيقة في المجتمع الإسلامي بالمناطق التي زارها، مما جعله يحيد عن الصواب شيئاً ما في تقدير بعضها إلا أنه كان منصفاً في مواضع أخرى، وهذا يتضح من المقارنة التي عقدها بين المجتمعين الإسلامي والمسيحي الأوروبي في عصره بعد احتكاكه بكل منهما. فهو يؤكد علي أن المجتمع في مصر وفلسطين كان يتمتع بحالة السلم الاجتماعي شملته بطائفتيه الإسلامية والمسيحية ويقدم دليلاً على ذلك، إذ يقول: إذا ماكنت في رحلة وامتطى فيها جملاً أو حماراً يحمل أمتعتى القليلة ونفق الجمل أو الحمار فاضطررت إلى ترك كل متاعي بدون حارس عليه، وذهبت إلى المدينة لأحصل على دابة أخرى. فإنني سأعود لأجد كل ممتلكاتي كما هي دون أن تمس بسوء، وهذا هو السلام الذي يتمتعون به هناك». وفي المقابل يذكر الرحالة عن المجتمع الأوروبي، ولكن تجري في رومانيا (يقصد المنطقة

(٦٤) أوضحت ذات الرحلة أنه كان يتم إعفاء اليهود الزائرين من دفع رسوم الدخول إلى مصر، وكان عليهم فقط الحصول على تصريح من الأمير بذلك، راجع:

Meshullam Ben R. Menahem of Volterra, The clinerairy of R. Meshullam.... 1481 A. D, in Jewish Travellers, cd. by Elkan Nathan Adler, London 1930, pp. 159 - 178

الوسطى من إيطاليا) أشياء كثيرة سيئة كما يوجد بها رجال أشرار؛ منهم من يسرق ومنهم من ينهب. أما هؤلاء الذين يتمنون الذهاب إلى القديس بطرس لا يستطيعون عبور رومانيا إلا إذا كانوا في صحبة كبيرة ومسلحة بصورة جيدة، ولكنه استثنى كل من مقاطعتي لمبارديا وبرتاني الواقعة ضمن ممتلكات شارل الأصلع، فذكر أنهما تنعمان بالهدوء والسلام.

وهكذا فبعد تناول المادة التاريخية في رحلة برنارد في دراسة تاريخية نقدية، ثمة ملحوظات عن الرحلة ميزتها أيضاً فيما ورد من معلومات جغرافية، إذ نلمس دقة صاحبها فيما ساقه عن الكثير منها غير أنه لم يكن موفقا في ذكر بعضها الآخر. ومن المعلومات الجغرافية التي كان دقيقاً في إيرادها: إنه حدد موقع ميناء الإسكندرية في شمالها، كما أن النيل (٦٥) يشقها من أوسطها من جهة الجنوب حتى يصب في البحر المتوسط، وهذا الوصف يتفق مع وصف الإسكندرية زمن الرحلة إذ كانت تتصل بالتيل بواسطة ترعة شيديا التي كانت تقوم مقام ترعة المحمودية الحالية أو الخليج الناصري في العصور الوسطى (٦٦). وعندما كان برنارد في رحلته من عاصمة مصر، (الفسطاط والعسكر معاً) إلى دمياط أشار إلى موقعي ستيث Sitinuth ومعالا Maalla، وبالتحقق من هذين الموقعين يتبين أن المقصود بالموقع الأول هو مدينة سمنود الواقعة على فرع دمياط، وعلى بعد خمسة وأربعين ميلاً إلى الجنوب الغربي منها، أما الموقع الآخر فلعله محلة إنشاق (٦٧) على الطريق المقابل المؤدى إلى شربين - نظراً لأنه قريب النطق من مسمى «محلة» الذي يطلق على عدة مناطق في الدلتا، كما أنها تقع على ذات الفرع فيما بين مدينتي سمنود ودمياط، الأمر الذي يدفع إلى الاعتقاد في أن الموقعين استخدما بصفتهما قاعدتين تتوقف فيهما السفن النيلية زمن الرحلة.

تناول برنارد مدينة دمياط بوصف يغلب عليه الدقة أيضاً، فذكر أن البحر يحيط بها من جهة الشمال ونهر النيل من بقية الجوانب عدا قطعة قاحلة ضيقة من اليابس. وهذا يتفق مع الواقع الجغرافي، إذ وصفت بكونها شبه جزيرة فبينما هي تطل على البحر المتوسط شمالاً، فالمياه العذبة لفرع دمياط وبحيرة تنيس بحيرة المنزلة» يحداها غرباً وشرقاً. وبذا فإن المنفذ

(٦٥) أطلق برنارد على النيل مسمى آخر، وهو جيحون The ion. وفي الواقع، عادة ما كان النبل يلفت أنظار الزائرين وممن أفاض في وصفه فلكس فابري الذي أورد عديداً من أسمائه فبالإضافة إلى مسمي جيحون ذكر أسماء أخرى له، مثل: الجنة Paradis، چیناز Genese، نیلون Niloon، علاوة على مسمى النيل الذي أطلقه المصريون عليه، راجع:

Fabri, Felix, Op. Cit., pp 607 - 608

(٦٦) محمد جمال الدين الشيال: طبوغرافية الإسكندرية وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، المجلة التاريخية المصرية، العدد الثاني ١٩٤٩م، ص ٢٠٣.

Bernard the Monk. Op. Cit, p. 141, n2. (٦٧)

البرى الوحيد إليها من جهة الجنوب (٦٨)، وعندما قصد برنارد تنیس سجل ما رآه من ضيق أرضها حتى أنه رأى أنها لا تسع إلا ما بها من كنائس، كما سجل ظاهرة جغرافية أخرى وهي انبساط أرضها، وهذه الحقائق أشار إليها الجغرافيون العرب المعاصرون حينما ذكروا أن «بحيرة تانیس... بها مدن كالجزائر ولا طريق إليها إلا في السفن» (٦۹). كذلك جاء وضع ترتيب المدن التي مر بها برنارد صحيحاً من الناحية الجغرافية حيث مر بالفرما والعريش وغزة والرملة وعمواس ومنها إلى بيت المقدس وفيها أورد أسماء ومواقع بعض كنائسها بشكل صحيح ولاسيما كنائس السيدة مريم والقيامة وصهيون والقديس بطرس والجثمانية والصعود. وبعد انتهاء رحلته في فلسطين في طريق العودة لمجده يقول: «ظللنا نبحر لمدة ستة أيام بصعوبة كبيرة لأن الرياح لم تكن مواتية لاتجاه السفينة». وهذه الظاهرة الجغرافية تتفق مع الواقع إذ إن اتجاه الرياح في البحر المتوسط غربية معاكسة للرياح التجارية الشرقية كما هو معروف، ومن ثم كانت تعرقل سير السفن القادمة من الشرق. وأخيراً، نجده يسجل ظاهرة ارتفاع المياه وانحسارها حول جبل القديس ميخائيل صاحب المقبرتين عند بحر الشمال فيما يعرف اصطلاحا بظاهرة المد والجزر» في الكتب الجغرافية.

أما فيما يتعلق بالمعلومات الجغرافية غير الدقيقة لدى برنارد أو التي جانبه فيها الصواب فهي عديدة أيضاً. علم قدرته علي تقدير المسافات فكانت ملاحظة شائعة إذ حدد المسافة بين جبل جرجانوس شرق روما وميناء بارى بمائة وخمسين ميلا في حين إنها في الواقع تزيد أربعمائة ميل الخط المباشر وركوب البحر، وعندما ارتحل إلى فلسطين قدر المسافة من القدس إلى بيت لحم بمسافة ميل واحد، في حين إنها تقارب ستة أميال، كذلك قدر المسافة بين بيت لحم ودير الكهنة المقدمين في رامة الخليل بمسافة ميل واحد، في حين إنها تزيد عن الإثني عشرة ميلاً. وفي معرض الحديث عن الأماكن الدينية لم يهتم يذكر أسماء بعض الكنائس وحدد موقع بعضها خطأ كما هو الحال بالنسبة لكنيسة القديس ستيفن، حيث حدد موقعها إلى الشرق من كنيسة صهيون الواقعة في الجنوب في حين إنها تقع إلى الشمال من المدينة المقدسة. كما ذكر أن هناك كنيسة تحمل اسم القديس يوحنا فوق جبل الزيتون في حين إنه ليس بالموقع كنيسة تحمل المسمى المذكور وأخيراً نجده حدد موقع بلاد بابل التي ذكر اسم ملكها نبوخز نصر Nebuchad nezzar في جنوب القدس وقت تواجده بها وأضاف أنها مسكونة بالأفاعي والوحوش البرية، ومن ثم أخفق في تحديد موقعها، كما أساء وصفها، إذ إن العراق كانت تتمتع بفترة من الرخاء

(٦٨) لمعرفة المزيد عن موقع دمياط الاستراتيجي، راجع: محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة. حملة چان دی برين على مصر (۱۲۱۸ - ١٢٢١ / ٦١٥ - ٦١٨ هـ ) الإسكندرية ۱۹۸٥، ص ١٨٦ -

(٦۹) ابن حوقل، صورة الأرض، الطبعة الثامنة، لبدن،۱۹۳۸، ۱۹۳۹م، ص ١٥٦؛ الاصطخرى: مسالك الممالك، ليدن ۱۹۲۷م، ص ٥٢.

العظيم في هذا الوقت. ويبدو أنه كان متأثراً بما ورد في العهد القديم بهذا الشأن (۷۰) غير أنه يمكن التماس العذر له في تلك الزلات بسبب عدم نضوج الحج المسيحى حتى وقت زيارة الحاج الأوروبي. كما أن سابقيه في التدوين لرحلات الحج انزلقوا أصلاً في كثير من الأخطاء. فاستعان اللاحقون بمدوناتهم تلك دليلا مرشداً.

وفي النهاية، فقد يمكن الخروج من دراسة رحلة برنارد ببعض النتائج الطيبة، فمن الواضح أن رحلات الحج الأوروبي والتي كانت رحلة برنارد ورفيقيه من أهمها قد تركت أثراً في دفع حركة الحج المسيحى الأوروبي الغربي إلى الأراضي المقدسة بشكل أو بآخر، إذ إن أربعين حاجا من النورمان العائدين من الأراضي المقدسة هبطوا إلى مينا، بارى بعد بضع سنوات من رحلة برنارد ومنها شقوا طريقهم إلى جبل جرجانوس حيث مزار كنيسة القديس ميخائيل (۷۱) ، ومن ثم فلهذه الحادثة دلالتها إذ أصبح من الملاحظ أن الحجاج الأوروبيين في شمال القارة استفادوا من تجارب الحجاج السابقين عليهم الذين تركوا مدونات واعتبرت دليلاً مرشدا لمن يسلك طريق الحج إلى الأراضي المقدسة. ومما يؤكد هذه الملاحظة اتباعهم نفس الطريق حيث عرجوا في طريق عودتهم على كل من باري ومزار القديس ميخائيل، كذلك تحرى برنارد الدقة بشكل أوضح عن سابقيه في رحلة الحج إلى القدس، ونضرب مثلاً هنا بما ورد برحلة واليبالد عند سرده للأحداث وتناوله للأماكن. واشتملت رحلة برنارد أيضا على معلومات ومواقع لم ترد عند الكثير من الرحالة الذين كانت رحلاتهم لاحقة لرحلته.

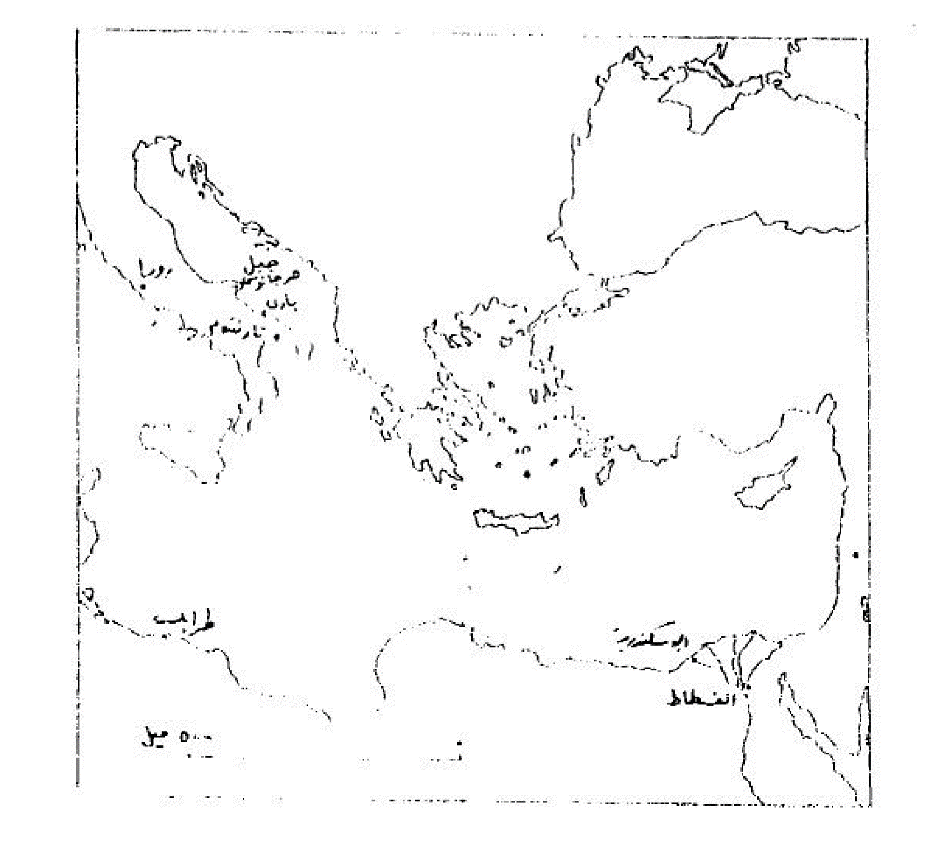
من ناحية أخرى وقعت أحداث رحلة برنارد ورفيقيه إلى الشرق الإسلامي لتعكس بعض أوضاعه السياسية والحضارية، بعين أوربية في وقت كان المد فيه لصالح المسلمين حتى أن أوربا غدت مكشوفة لهم خاصة عند أطرافها الجنوبية والغربية، في حين كانت الدولة الاسلامية ذات الهيبة والقوة عالماً يغلب عليه الإبهام والغموض بالنسبة للأوروبيين وعليه فالقدوم في زيارة إلى بلاد المسلمين قد تقوم بتوضيح بعض جوانب هذا العالم، ولا يفوتنا في هذا المقام الإشارة إلى أن أفراد الرحلة انطلقوا منذ البداية من سقر البابوية في روما، التي ظلت تنتظر تقريراً بها يقدمه برنارد فكان بمثابة نص هذه الرحلة الموجزة في عباراتها، والغنية بمعلوماتها والفريدة في زمنها، ومع ذلك يجب الالتزام بالحذر من بعض المادة التي تحتويها.

(۷۰) العهد القديم: أشعياء ١٤: ٢٩

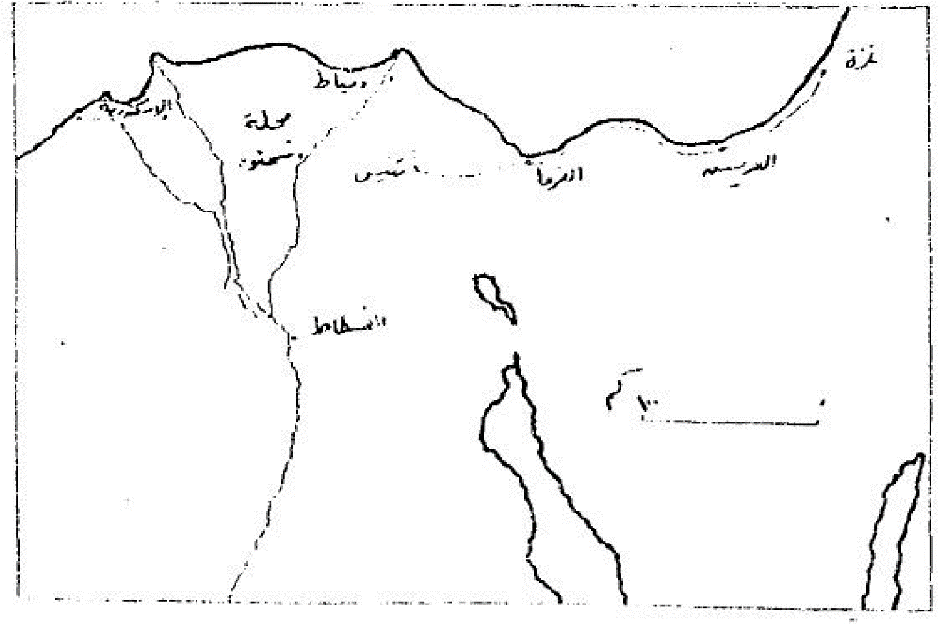
(۷۱) محمد محمد مرسى الشيخ: الممالك الجرمانية في أوروبا في العصور الوسطى، دار الكتب الجامعية الإسكندرية ١٩٧٥، ص ٣٠٨، راجع أيضاً:

Christic Neil, Op Cit.. p. 216.

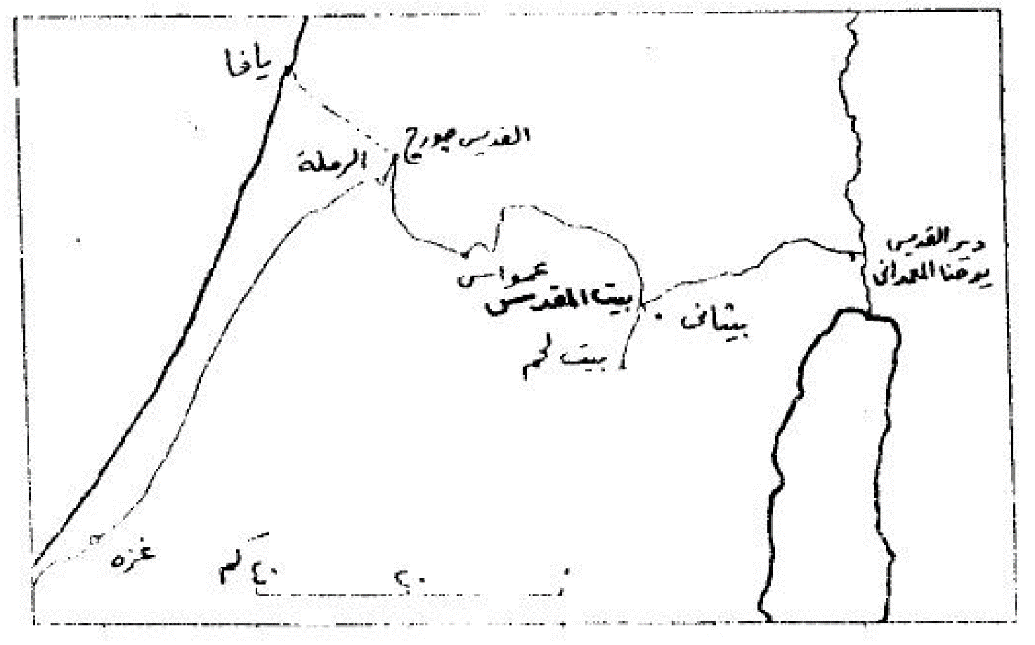
**خط سير رحلة برنارد الحكيم في مراحلها المختلفة**



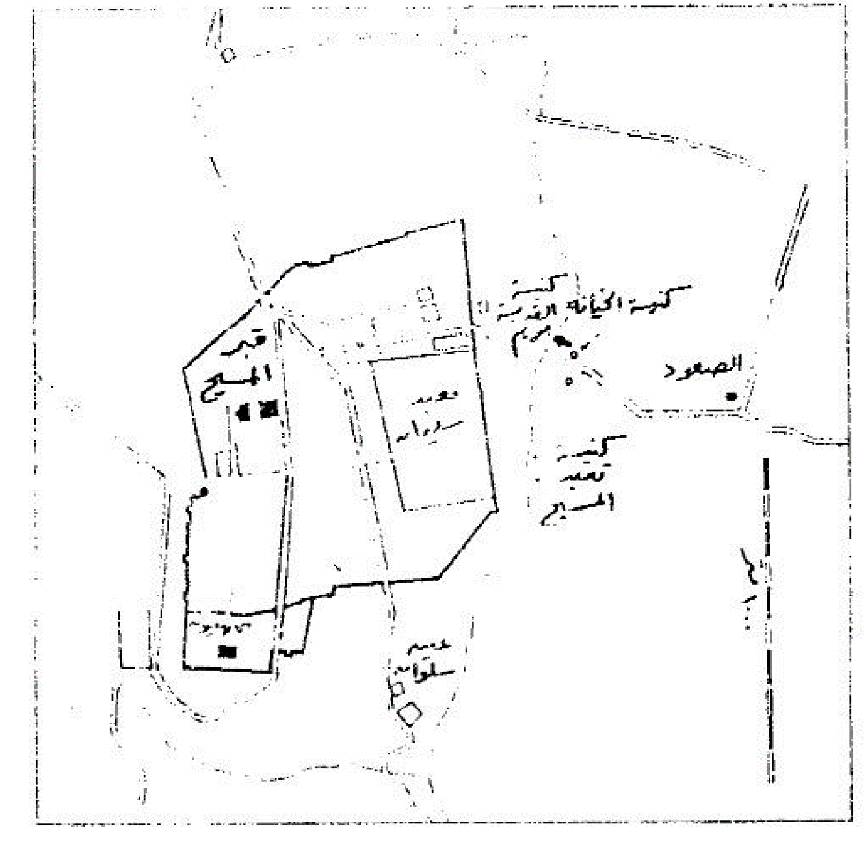
**خريطة رقم (۱): خروج الرحلة من إيطاليا حتى وصولها إلى الإسكندرية.**



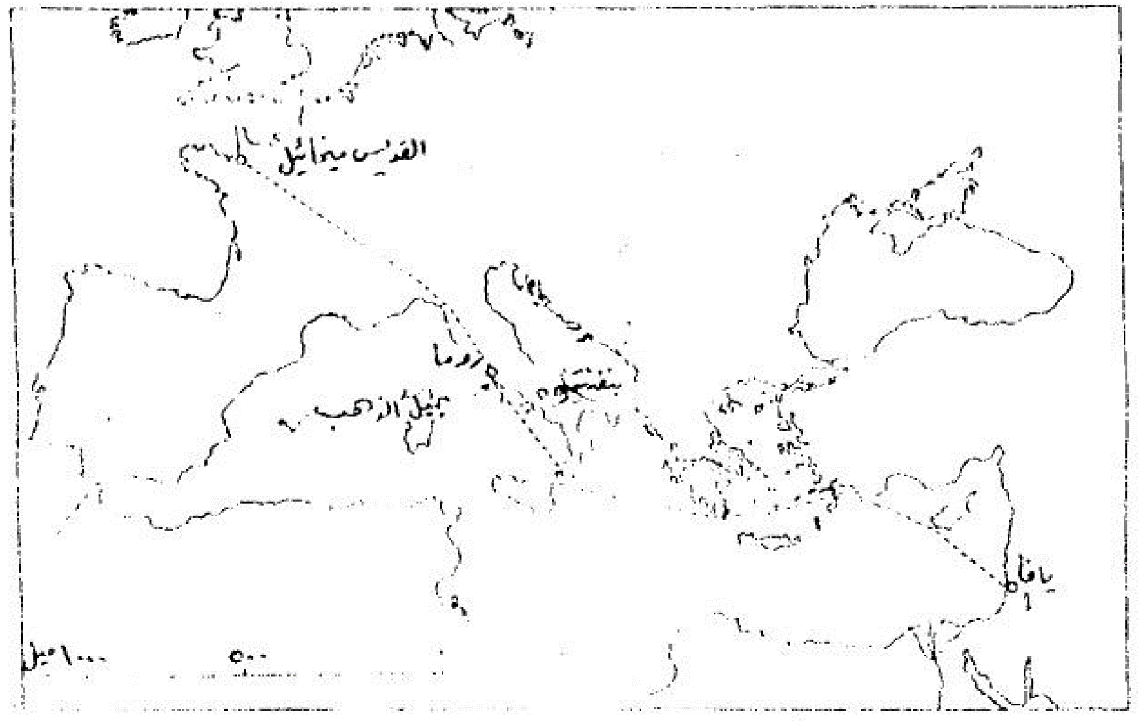
**خريطة رقم (۲): خط السير في مصر من الإسكندرية حتى غزة.**

****

**خريطة رقم (۳): الرحلة في فلسطين**

****

**خريطة رقم (٤): معالم القدس الدينية التي شملتها الرحلة.**



**خريطة رقم (٥): رحلة العودة إلى الغرب الأوربي**

**الخرائط نقلاً عن:**

Wilkinson, J., Op. Cit., maps nos. 43 – 47.

**ملحوظات على النص:**

حرص الباحث على تمييز العبارات التي أضافها الناشر جون ولكنسون من مدونات أخرى لم يكن السابقون عليه قد استخدموها، بوضعها بين حاصرتين رمزاً للاقتباس، كما حرض على إيراد التفسيرات التي أطلقها نفس الناشر في ثنايا النص، وحددها بوضعها بين الأقواس علما بأن التفسيرات لم يُمكن تحديدها إلا بعد مضاهاة النص الذي ساقه الناشر بالنصوص الأخرى. أما الهوامش التي وضعها، فقد ميزت بالحفاظ علي ترقيمها العددي المسلسل، وما دونها الواردة لدى الناشر أو برى ستيوارت فقد حملت علامة \* هذا وقد استخدمت الأقواس المركنة من قبل الناشرين معاً لإضافةٍ ما رأيا ضرورة ضمها للنص.

**ترجمة للنص:**

**رحلة برنارد الحكيم \* «ورفيقيه» ٨٧٠م (۱)**

من هنا يبدأ وصف رحلة ثلاثة من الرهبان وهم: برنارد ورفـيـقـيـه إلى الأماكن المقدسة وبابليون Babylon، وشملت الرحلة وصفاً لمدينة بيت المقدس وما يحيط بها من بقاع رآها برنارد الحكيم أثناء ذهابه إلى المدينة أو عودته منها.

۱ - في عام تسعمائة وسبعين من تاريخ تجسيد السيد المسيح (\*\*)، «وفي عام ٨٧۰م.» (۲) تثبتنا من أحداث القيام بالرحلة ووصفها راجين من الله أن يوفقنا في رؤية أرض الأنبياء في بيت المقدس إذ اجتمعت أنا برنارد مع اثنين من الإخوة في تقوى الله ومحبته، وكان أحدهما يدعى ثيودمند من دير فنسنت المبارك في مقاطعة بنفنتيو أما الآخر فهو أسباني Spaniard يدعى ستيفن (۳) «وكانت فرنسا هي مسقط رأسه» (٤) وبمجرد حصولنا على شرف المثول بين يدى نیکولاس (٥) بابا المدينة (روما) فزنا بما تمنيناه حيث سمح لنا بأن نبدأ رحلتنا تحفنا مباركته ومساعدته.

\* التزم الناشر بنص طبعة توبلر

Tobler T.,Molinier, A.. (eds.). Itinera Hierosoly mitana, 2 vols., Publica- tions de la société de l'Orient Latin, Série Géographique, 1.2 Geneva 1879 - 80.

(1) إن أبكر مخطوط للرحلة الذي يرجع إلى القرن الثالث عشر يحمل نفس العنوان، وهو محفوظ في جامعة لينكولن Lincoln في أكسفورد Oxford كان يطلق على الكاتب اسم برنارد الحكيم Bernard The Wise.

\*\* ورود اسم البابا نيكولاس في ثنايا النص يكفي دليلاً على أن رحلة الحج قد تمت قبل مائة عام من هذا التاريخ، ويتضح ذلك في الفقرة رقم ١، كما يتضح في الفقرة رقم ٢٤ من النص.

(۲) إن شرح بعض النقاط من خلال الحواشي سيجعل النص يوضح أن برنارد كان يتحدث عن أناس وأحداث تحمل تاريخاً سابقاً لعام ٨٧٠م، وهذا العام كان واضحاً بالتأكيد في المخطوط، إلا أن بعض المؤلفات أرجعت التاريخ إلى عام ۹۷۰م، وذلك هو التاريخ الذي نقرأه في كل المخطوطات، وكان هناك مخطوطاً يرجع تاريخه إلى عام ۸۷۰م ضمن مجموعة كوتونيات Cottonian في المتحف البريطاني، لكنه فقد في منتصف القن التاسع عشر، وفقاً لما ذكره ت. رايت في كتاب الرحالة الأوائل في فلسطين، لندن ١٨٤٨، ص ١٦

Wright., T., Early Travels in Palestine

وقد ورد في نص برنارد ما يؤكد على أنه بدأ رحلته قبل وفاة البابا نيكولاس في عام ٨٦٧م.

(۳) إن هذه العبارة ساقطة من مخطوط ريمس Reims.

(٤) إن هذه العبارة مسجلة في مخطوط ريمس.

(٥) اعتلى نيكولاس الأول 1 Nicholas منصب الباباوية من عام ٨٦٧/٨٥٦م.

۲- وبمجرد أن تمكنا من الخروج من هناك وصلنا إلى جيل جرجانوس .......................  
ميخائيل على بعد رمية حجر منه، ومن فوقها على سفح الجبل يبدو ......................................  
ويقال أن كبير الملائكة هو نفسه الذي خصص هذه الكنيسة لخدمة الله......................................  
الشمال وهي تتسع لستين رجلاً وفي الطرف الشرقي داخل الكنيسة ......................................  
المذبح فيوجد بالجانب الجنوبي حيث تقدم فوقه الأضاحي ولا يتم وضع......................................  
وهناك آنية مخصصة لوضع الهبات معلقة قبل الوصول لهذا المذبح،......................................  
عدد من المذابح الأخرى. وكان رئيس دير الرهبان يدعى بنيجنا توس Benignatus وكان يشرف على عدد كبير من الإخوة.

٣- بعد مغادرة جبل جرجانوس بمسافة مائة وخمسين ميلاً وصلنا لمدينة للمسلمين (٦) تدعى بارى وكانت تقع فيما سبق تحت سيطرة أهل بنفنتيو وهذه المدينة - الواقعة على ارتفاع من البحر - محصنة بحائطين سميكين في الجهة الجنوبية، أما من جهة الشمال فهي تواجه البحر. وبعد أن ناشدنا حاكم المدينة الذي يدعى سلطان، تم إمدادنا بكافة الترتيبات اللازمة لرحلتنا تتمثل في خطابين، يتضمنان وصفاً لأشخاصنا وأصولنا لحاكمي الإسكندرية وبابليون إذ أن هذين الرجلين خضعا تحت سلطة أمير المؤمنين Amar mominus (۷) الذي يحكم كل المسلمين الذين يسكنون بغداد وأكسيناري (۸) اللتين تقعان فيما وراء بيت المقدس.

٤ - تركنا مدينة باري متجهين جنوباً لمسافة تسعين ميلاً حيث وصلنا لميناء مدينة تدعى تارنتوم، وهناك وجدنا ستا من السفن على ظهرها تسعة آلاف من أسرى مسيحي بنفنتيو وقد حملت السفينتان الأوليان بثلاثة آلاف من الأسرى في طريقها إلى أفريقيا، أما السفينتان التاليتان فتم تحميلها بنفس الطريقة بثلاثة آلاف أمير إلى طرابلس.

٥- أما نحن فقد تم وضعنا أخيراً في القافلة الثالثة. السفن. مع بقية الأسرى في اتجاهنا إلى ميناء الإسكندرية حيث استغرقت الرحلة ثلاثين يوماً. وعندما علم قبطان السفينة -

(٦) ضرب الإمبراطور لوريس الثاني Louis II حصاراً حول مدينة بارى Bari في عام ٨٦٩م. ثم استولى عليها من المسلمين عام ٨٧١م وبعد وفاته في عام ٨٧٥م. قامت قوات الإمبراطورية البيزنطية بالاستيلاء عليها. انظر:

C. Dicht and G. Marçais, Le Monde Oriental de 395 à 1081 (Histoire du Moyen Age III) Paris 1936, p. 440

(۷) أحد الألقاب التي كان يلقب بها الخليفة هو "Prince of the Faithful" أي «أمير المؤمنين، وما من شك أن هذا اللقب هو المشار إليه في هذا الموضع. وأسماء الخلفاء الذين عاصروا فترة رحلة برنارد هم: المعتز (٨٨٦ - ٨٨٩م )، المهتدى (٨٦٩م)، والمعتمد (۸۷۰ – ٨٩٢م.) .

(۸) لم يحدث أن أقام الخلفاء في كل من مدينتي بغداد وسامرا، في وقت واحد. وبحلول عام ٨٣٦م.، أصبحت بغداد مدمرة بالقدر الذي جعل الخليفة المعتصم ينتقل إلى سامراء، وما لبثت أن استعادت المدينة كيانها بأن اتخذها الخليفة المعتضد عاصمة له بعد خلافته في عام ٨٩٢م.

..............................................................برغبتنا في الهبوط إلى الشاطئ منعنا من ذلك، ولكن حين   
............................................................. (٩) سنحت أمامنا الفرصة للتزول إلى البر بعد أن سمح لنا

..........................................................، تمكنا من الوصول إلى الإسكندرية ومقابلة حاكمها، فسلمناه  
.......................................................... لكنه لم يحرك ساكناً حياله برغم من أنه لم ينكر محتواه، وأمام هذا الموقف قام كل منا بإعطائه ٣٠٠ (ثلاثين) ديناراً (١٠) أخذها لنفسه، وحينئذ قام بتحرير خطابات لنا لتقديمها إلى حاكم بابليون. وعادة هؤلاء الناس حساب وزن كل ما يمكن وزنه فضلاً عن أنهم عادلوا الستة صولدات (شلنات) (۱۱) والستة دينارات من عملتنا بثلاثة صولدات وثلاثة دينارات بالنسبة لهم.

إن الإسكندرية هذه تقع على البحر وبها قام القديس مرقس بالدعوة للإنجيل وأصبح أسقفاً فيها ويقع دير القديس مرقس خلف البوابة الشرقية حيث تم دفنه فيما قبل في هذه الكنيسة التي تضم العديد من الرهبان. غير أن البنادقة الذين جاءوا عن طريق البحر تمكنوا من السطو على جنته ونقلها إلى جزيرتهم في غفلة من حراسها. أما فيما وراء البوابة الغربية فيوجد دير يحمل اسم الأربعين قديساً حيث به ما يشبه مركزاً للرهبان. ويقع الميناء إلى شمال المدينة كما يشقها جيحون (النيل) من وسطها من جهة الجنوب. ذلك النهر الذي يروى مصر ليصب في البحر عند الميناء سالف الذكر.

۷- ومن هنا أبحرنا في اتجاه الجنوب إلى مدينة بابلوينا Babylonia في مصر التي وصلناها ستة أيام تلك المدينة كان يحكمها فرعون يوماً وفي ظل حكمه قام يوسف ببناء مخازن الغلال السبعة التي مازالت قائمة حتى الآن وبمجرد أن وصلنا إلى المدينة قادنا حراسها إلى الحاكم الذي كان يدعوه المسلمون باسم Adelacham (۱۲)، الذي سألنا عن هدف رحلتنا وعن الأمراء الذين نحمل خطابات منهم ولذا أريناه خطابات كل من سلطان المذكور سلفاً وحاكم

(٩) إنها عملة اليوري Aurci، أو العملات الذهبية. إن القيمة العالية للعملة الذهبية جعلت الإمبراطورية الإسلامية رائدة للاقتصاد العالمي، وأي زائر أوروبي خلال فترة الحكم العباسي، كان معرضاً لخوض تجربة مشابهة لتلك التي خاضها برنارد عندما قام بتحويل العملات التي جلبها معه.

(١٠) كان الدينار يصنع من الفضة.

(۱۱) عملة الصولدى كانت ذهبية بن

(۱۲) يبدو هذا المسمى شبيه بمنطوق «عبد الحكيم». لكن الأمير في هذا الموضع هو أ أحمد طولون، الذي استقل عن الخلافة العباسية عام ٨٦٨م. ومد حكمه إلى سوريا. فريما كان لرسائله الأثر الطيب على تلك المناطق خلال زيارة برنارد لها

الإسكندرية، ولكنها لم تنفعنا بشيء، وعليه قام بإيداعنا السجن. وبعد ستة أيام خطر ببالنا بعون من الله أن يعطى كل منا هذا الحاكم مبلغ ثلاثمائة (ثلاثة عشر) ديناراً كما حدث في المرة السابقة. وحينئذ قام الحاكم بمنحنا خطابات لم يجرؤ أحد ممن شاهدها في أي مكان أو مدينة على أن يبتزنا مرة أخرى نظراً لأنه كان الرجل الثاني في إمبراطورية أمير المؤمنين سالف الذكر. غير أنه حينما كنا ندخل أياً من المدن التي سيلى ذكرها لم يصرح لنا بالخروج منها إلا بعد الحصول على تصريح مكتوب على إحدى الرقائق مقابل دينار أو إثنين.

وهنا وفي هذه المدينة يوجد البطريرك السيد ميخائيل (Dom(Lord Michael (۱۳) وهو الذي يتصرف ببركة الله في شئون الأساقفة والرهبان والمسيحيين في شتى أرجاء مصر، وفيها كان القانون الوثني يفرض ضريبة سنوية (ضريبة رؤوس Poll - tax) يدفعها المسيحيون إلى هذا الأمير سالف الذكر مقابل أن يبقوا في أمان وحرية، وتقدر قيمة هذه الضريبة بواحدة أو اثنتين أو ثلاث من القطع الذهبية ( جنيهات)، وفي حالة ما إذا كان المسيحى من الطبقة الدنيا (الأفراد أكثر فقراً فكان عليه أن يدفع ثلاثة عشر ديناراً، أما إذا لم يتمكن من دفع هذه الثلاث عشر ديناراً فيرسل إلى السجن سواء أكان من أهل البلاد أم كان مسيحياً أجنبياً. ويظل قابعاً فيه حتى يرسل له الله ملاكه ليقبض روحه أو أن يتولى مسيحيون خيرون آخرون اخراجه.

۸- وظلت الأمور على هذه الوتيرة إلى أن عدنا ثانية في نهر النيل في رحلة استغرقت ثلاثة أيام وصلنا بعدها إلى مدينة سيتينيث Sitimuth، ثم تقدمنا من سيتينيث إلى معالا Maalla ومنها عرجنا على دمياط Damias حيث يحيط بها البحر من جهة الشمال ونهر النيل من بقية الجوانب عدا قطعة قاحلة ضيقة من اليابس. ومن هناك أبحرنا إلى مدينة تنيس حيث يوجد مسيحيون دفعهم تدينهم الشديد إلى أن ينزعوا إلى حسن الضيافة والكرم الشديد. وهذه المدينة ليس لها أية أرض عدا تلك التي تقوم عليها الكنائس وهذا يوضح أرض تنيس المنبسطة التي ترقد فيها جثث أشخاص تم قتلهم في عهد موسى وتبدو أماكن دفن هذه الجثث وكأنها ثلاثة حوائط.

٩ - ومن تنيس وصلنا إلى مدينة الفرما Farama حيث قال الملاك ليوسف بأن يفر مع الطفل وأمه (ابنه والأم)، وقد تم تشييد كنيسة في ذات الموقع تخليداً لذكرى مريم المباركة Blessed Mary. وفي هذه المدينة، هناك العديد من الجمال التي يقوم أهالي المنطقة بتأجيرها للغرباء الحمل أمتعتهم عبر الصحراء، حيث تستغرق الرحلة ستة أيام. وهكذا فالمدخل

(۱۳) ارتقى السيد ميخائيل منصب البطريرك منذ عام ٨٥٩م وحتى عام ٨٧١م. وكان قبل ذلك أسقفاً للإسكندرية، كانت الفسطاط هي محل إقامته، التي تعد عاصمة لمصر منذ سقوطها بيد المسلمين عام ٦٤١م. وحتى تاريخ تأسيس القاهرة عام ٩٦٩م.

لهذه الصحراء يبدأ من مدينة الفرما تلك، والصحراء هو الاسم المناسب لها: فهي لا تنتج أعشاباً ولا أية محاصيل مزروعة، اللهم إلا أشجار النخيل، إلا إنها بيضاء تماماً، مثلما هو الحال في البلاد التي يغطيها الجليد. على طول هذا الطريق، يوجد نزلان للمسافرين، واحد منهما يدعى البارا والآخر يدعى الباشارا (١٤)، ويستطيع المسافرون شراء ما يحتاجون إليه من المحال التي يملكها المسيحيون والوثنيون هناك، لكن لا تنتج هذه الأرض شيئاً على الإطلاق سوى ما سبق وأن ذكرناه. بعد نزل الباشارا وحتى مدينة غزة، والتي كانت مسقط رأس شمشون، تبدأ الأرض الخصبة الغنية بكل أنواع الطيبات.

۱۰ - وبعد خروجنا من هذا المكان، توجهنا إلى العريش ومنها وصلنا إلى مدينة الرملة، والتي يوجد بجوارها الدير الذي يرقد فيه الشهيد جورج المبارك Blessed George the Martyr. وانطلقنا من الرملة إلى قرية عمواس Emmaus، ومن قرية عمواس وصلنا إلى القدس، المدينة المقدسة، وتم استقبالنا في بيت ضيافة الامبراطور الأمجد تشارلز، حيث يحصل كل من يتحدث اللسان الروماني Romani وكل من يبغى التعبد على كرم الضيافة هناك. وبالقرب من بيت الضيافة هذا توجد كنيسة تم تشييدها إحياء لذكرى السيدة مريم، وتضم هذه الكنيسة مكتبة فخمة يرعاها هذا الإمبراطور، كما تحتوي على اثنتي عشرة مكاناً للإقامة وحقول وكرمات وبستان في وادي چوزافات The Valley of Jehoshaphat، وقبالة بيت الضيافة، يوجد سوق، وكان على كل من له تجارة هناك أن يدفع ضريبة سنوية قيمتها جنيهان.

۱۱ - وداخل حدود هذه المدينة، توجد أربع كنائس ذات أهمية خاصة، ونجد جدران الكنائس الأربعة متلاصقة مع بعضها البعض. وهناك كنيسة منها تقع جهة الشرق، والمدينة تحتوى على جبل كلفاري وعلى المكان الذي تم فيه العثور على صليب الرب، ويطلق على هذه الكنيسة اسم كنيسة قسطنطين البازيليكية The Basilica of Constantine. وهناك كنيسة أخرى إلى الجنوب وثالثة إلى الغرب؛ وهذه الكنيسة يوجد في وسطها ضريح الرب The Lord's Sepulchre. حول هذا الضريح، هناك تسعة أعمدة، والجدران التي تفصل تلك الأعمدة بنيت من أفضل أنواع الأحجار. توجد أربعة من هذه الأعمدة التسعة أمام المقبرة الحالية، والأعمدة التي نجد في وسطها الحوائط) تحيط بالحجر الذي قام الملاك بدحرجته بعيداً. وجلس عليه بعد صمود الرب. وإنني أرى أنه ليس من الضروري الخوض أكثر من ذلك في موضوع هذه الكنائس حيث أن بيدة Bede يصفها وصفاً وافياً في تاريخه (١٥) ومع ذلك فهناك

(١٤) تلك الأسماء لا تنطبق مع المواضع المعروفة في الطريق المعاصر. فربما تحمل معاني: البر The Well والبكرة The Pulley أو البر The Land والبحر The Sea. انظر:

Tobler's discussion, Dictionnaire de la Terre- Sainte, p. 405, and, wright, op. cit., p. 25, no. 2

(١٥) إن بيدة Bede يعيد، في حقيقة الأمر، معلومات سبق وأن أمدنا بها أدمنون الأول 12/8 Adomnan وايكيروس Eucherius

ما يجب ذكره هنا وهو أنه في يوم السبت المقدس Holy Saturday أي عشية عيد الفصح Easter eve (۱٦)، يبدأ القداس مبكراً في الكنيسة وبعد الانتهاء منه يتم الترتيل بعبارة «وارحمتاه» Kyrie elison حتى يأتي الملاك فيقوم بإضرام النار في القناديل التي تتدلى من أعلى الضريح) السابق ذكره). ويعطى البطريرك قبساً من الضوء إلى الأساقفة وإلى باقي الناس والذين يمكن لكل واحد منهم أن يقوم بإضاءة موضعه من الوقوف. وكان يطلق على هذا البطريرك اسم ثيودوسيوس (۱۷) الذي كان قد حمله المسيحيون من ديره الذي يقع على بعد ١٥ ميلاً من القدس وجعلوه بطريركاً على كل المسيحيين في أرض الميعاد Promised Land بفضل ورعه وتقواه. وبين الكنائس الأربعة السابقة توجد ساحة غير مسقوفة تلمع جدرانها بالذهب وتغطى أرضيتها أنفس الأحجار. وفي وسط الساحة يوجد مكان فسيح تحده أربعة سلاسل تتدلى (۱۸) من الكنائس الأربعة السابقة ويقال أن هذا المكان صرة العالم.

۱۲ - وبالإضافة إلى ذلك توجد في المدينة أيضاً كنيسة أخرى إلى الجنوب فوق جبل صهیون تسمى كنيسة القديس سمعان، حيث غسل فيها الرب أقدام حوارييه، وهنا يتدلى تاج الرب الشوكي. وقد ذكر في المدونات السابقة أن ذات المكان شهد وفاة السيدة مريم. وبالقرب من الكنيسة إلى الشرق توجد كنيسة أخرى تم تشييدها إحياء لذكرى القديس ستيفن في نفس المكان الذي يقال أنه رجم فيه، وإلى الشرق أكثر من ذلك توجد كنيسة تم تشييدها إحياء لذكرى بطرس المبارك في المكان الذي أظهر فيه نكرانه للرب - وإلى الشمال يقع معبد سليمان الذي يضم مسجداً للمسلمين Saracens. وإلى الجنوب توجد بوابات حديدية قام ملاك الرب بإخراج بطرس من سجنه من خلالها، وفي مرحلة تالية تم إغلاقها.

۱۳ - وفي أثناء مضينا قدماً من القدس هبطنا إلى وادى جوزافات الذي يبعد ميلاً من المدينة وهو يحتوي على بستان (قرية) الجثمانية Garden of Gethsemane إلى جانب مسقط رأس السيدة مريم حيث توجد كنيسة ضخمة إحياء لذكراها، وفي البستان (القرية) توجد أيضاً كنيسة السيدة مريم الدائرية التي يوجد بها ضريحها الذي يتحمل سقوط الأمطار بصعوبة لأنه غير مسقوف. وفي نفس المكان توجد كنيسة تحتوى على الأربع موائد الدائرية لعشاء الرب

(١٦) هذا هو أول وصف للاحتفال بالنار المقدسة Holy Fire. لكن سبق ذكره قبل قرن فيLife of Theodore the Sabaite، انظر:

J., Phocylides, Nea Sion (1911), p. 230. See also Revue Biblique, Paris, RB 1911,421

(۱۷) تولى منصب بطرياكاً منذ عام ٨٦٤م. حتى تقريباً عام ٨٨٠م.

(۱۸) يجب أن تقرأ كلمة كاتريناس Catenas الموجودة في النص اللاتيني على إنها كلمة کاترناریوم Catenarum

، وفي موقع الكنيسة وقعت حادثة الخيانة ضد الرب. وفي وادى چوزافات توجد أيضاً كنيسة أخرى شيدت إحياء لذكرى القديس ليوفيتيس St. Leontius ويقال أنه فيها سيأتي الرب ليوم الحساب.

١٤ - ومن هذا المكان تقدمنا إلى جبل الزيتون الذي يقع على المنحدر الذي يبدو منه مكان صلاة الرب لأبيه، وعلى جانب الجبل يتضح المكان الذي أتى فيه المفترون بالمرأة التي عرضوها على الرب بتهمة الزنا هذا المكان على كنيسة تم تشييدها إحياء لذكرى القديس يوحنا St. John كما أن الكتابة التي سبق أن كتبها الرب على الأرض تم حفظها على الرخام في هذه الكنيسة.

١٥ - وعلى قمة هذا الجبل الذي يذكر كثيراً ويبعد عن وادي جوزافات بميل واحد. حيث يقع مكان صعود الرب إلى الأب، فيوجد به كنيسة دائرية غير مسقوفة، ويوجد. مذبح تحت السماء المكشوفة في وسط الكنيسة أي في نفس مكان صعود الرب، وعند هذا المذبح تقام الاحتفالات بالقداس.

١٦ - ومن هذا المكان عبرنا إلى بيثاني التي تقع إلى الجنوب أثناء نزولك من الجبل على بعد ميل واحد من جبل الزيتون، وهنا يوجد دير يظهر في كنيسته ضريح ليعازر. وبجانب الضريح إلى الشمال توجد البركة التي اغتسل فيها ليعازر بأمر الرب بعد مبعثه عقب صلبه، ويقال أنه بعد ذلك صار أسقفاً في إبفياني Ephesus لأربعين عاماً. وأثناء هبوطك من جبل الزيتون، تجد على الجانب الغربي منه كتلة من الرخام كان قد امتطى الرب منها جحشاً وتحصر كل تلك المناطق إلى الجنوب، وفي وادى جوزافات، بركة سلوان.

۱۷ - علاوة على ذلك، فعندما رحلنا عن القدس وأثناء اتجاهنا إلى بيت لحم الذي يقع على بعد ميل واحد (ستة أميال من موطن ميلاد الرب، شاهدنا الحقل الذي كان حبقوق Habakkuk يعمل به حين أمره ملاك الرب بأن يحمل الطعام إلى دنيال Daniel في بابيلون تقع بابليون، حيث تولى نبوخز نصر الحكم، إلى الجنوب ولكن تسكنها الآن الأفاعي والوحوش البرية وفي بيت لحم، توجد كنيسة عظيمة جداً شيدت احياء لذكرى السيدة مريم، يوجد في وسطها سرداب تحت حجرة. والطريق إلى داخله يقع إلى الجنوب، أما الطريق إلى الخارج فيقع إلى الشرق. وهنا يظهر إناء الرب الضخم إلى الغرب من السرداب، والموضع الذي يكي فيه الرب يقع إلى الشرق، وهو ذاته الموضع الذي أقيم فيه مذبح يحتشد فيه الناس للاحتفال بالقداس.

وإلى جانب الكنيسة من جهة الجنوب تقع كنيسة الشهداء المباركين الأبرياء. وأخيراً، وعلى بعد ميل واحد من بيت لحم، يوجد دير الكهنة المقدسين الذين ظهر لهم الملاك عند ميلاد الرب.

۱۸ - أخيراً، وعلى بعد ثلاثين ميلاً إلى الشرق من القدس يقع نهر الأردن Jordan الذي يوجد فوقه دير القديس يوحنا المعمداني St. John The Baptist، وفي هذه الأماكن توجد أيضاً العديد من الأديرة التي تم تشييدها هناك.

١٩ - وما لبثنا أن وصلنا بعد ميل واحد إلى الغرب من مدينة القدس إلى كنيسة القديسة ماميلا St. Mamilla التي تحتوى على العديد من جثث الشهداء الذين بعد أن ذبحهم المسلمون، قامت القديسة ماميلا ببذل جهد كبير لدفنهم هناك.

۲۰ - وبعد رحيلنا من القدس، المدينة المقدسة، وصلنا إلى البحر، وصعدنا إلى متن السفينة وظللنا نبحر لمدة ستة أيام بصعوبة كبيرة لأن الرياح لم تكن مواتية لاتجاه السفينة وأخيراً بعد ترك البحر، وصلنا إلى جبل أوريس جبل الذهب Mount of Gold حيث يوجد كهف بسبعة مذابح وفرقه توجد غابة كبيرة. وبسبب الظلام لا يمكن لأحد دخول هذا الكهف إلا باستخدام مشاعل مضيئة. وكان رئيس دير الرهبان هناك يدعى دوم فالنتينوس (Dom Valentinus (Lord Valentine

۲۱ - وخرجنا من جبل أوريس (جبل الذهب إلى روما. وفي الجانب الشرقي من هذه المدينة، وفي المكان الذي يدعى لاتران، توجد كنيسة جيدة البناء شيدت إحياء لذكرى القديس يوحنا المعمداني، وهناك يقع قصر خاص بالرسل. ففي هذا المكان، يتم احضار مفاتيح المدينة كلها إلى التابع الرسولي كل مساء. وفي الجانب الغربي، كنيسة القديس بطرس، أمير الرسل، والتي تضم جثته. ولا توجد كنيسة أخرى في نفس حجم هذه الكنيسة في العالم أجمع إنها تحتوى على زخارف متعددة. وفي هذه المدينة تم دفن أعداد لا تحصى من جثث القديسين

۲۲ - عند هذه المدينة افترقنا عن بعضنا البعض. واتجهت بعد ذلك إلى القديس ميخائيل المعروف باسم صاحب المقبرتين St. Michael of the Two tombs (القديس ميخائيل حيث توجد المقبرتين، ويقع هذا المكان على جبل يمتد فرسخين في البحر. وعلى قمة هذا الجبل أقيمت كنيسة إحياء لذكرى القديس ميخائيل، ويحيط البحر بالجبل مرتين في اليوم، أي في الصباح والمساء، ولا يمكن الوصول إلى الجبل حتى يتراجع البحر (بفعل الجزر) لكن في عيد القديس ميخائيل Feast of st. Michael. حين يرتفع البحر حول الجبل ينحسر البحر مرة أخرى، ويقف مثل الحائط على الجانب الأيمن وعلى الجانب الأيسر. وفي هذا اليوم المقدس، يستطيع كل من يأتي لإقامة الصلاة الوصول إلى الجبل في أية ساعة في حين لا يستطيعون الوصول إليه في بقية الأيام. وكان رئيس دير الرهبان هناك هو فينيمونتيوس Phinimontius وهو من مقاطعة بريتاني Brettony

٢٣ - الآن سأذكر لكم كيف ينفذ المسيحيون قانون الرب في القدس وفي مصر: يعيش المسيحيون والوثنيون في نوع من السلام فيما بينهم. فإذا ماكنت في رحلة، والجمل أو الحمار الذي أمتطيه (يمتطيه خادمك( مات على الطريق، فاضطررت إلى ترك كل أمتعتى بدون

حراسة، وذهبت إلى المدينة لأحصل على دابة أخرى، فإنني سأعود لأجد كل ممتلكاتي كما. دون أن يمسها سوء. هذا هو السلام الذي يتمتعون به هناك. ولكن إذا ما قابلت رجلاً سائراً ليلاً، أو حتى بالنهار في المدينة أو بجانب البحر أو في رحلة، بدون أي مخطوط أو عهد من ملك أمير هذا البلد، فسيتم حبسه بالسجن إلى أن يأتي اليوم الذي يُعرف فيه بنفسه ليتبين ما إذا كان جاسوساً أم لا.

٢٤ - قام شعب بنفنتيو بذبح أميرهم سيشار (۱۹) Sichard بسبب غطرسته ودمروا قانون المسيحيين بدرجة كبيرة. وبعد ذلك انتشرت الصراعات والنزاعات فيما بينهم إلى أن قبل لويس Louis) Lewis) شقيق تشارلز Charles ولوثر Lohar، أن يصبح امبراطوراً عليهم بعد أن تلقى دعوة من شعب بنفنتيو له بذلك. ولكن تجرى في رومانيا Romania (۲۰) أعمال سيئة كثيرة، كما يوجد بها رجال أشرار منهم من يسرق ومنهم من ينهب، حتى أن هؤلاء الذين يتمنون الذهاب إلى القديس بطرس لا يستطيعون عبور رومانيا إلا إذا كانوا في صحبة كبيرة ومسلحة بصورة جيدة. أما فيما يخص لمبارديا Lombardy الذي يتولى لويس السابق ذكره حكمها، فهي هادئة ويسودها التسامح.. ويسود السلام أيضاً بين سكان مقاطعة بريتاني ولديهم. عادة ألا. أنه إذا ما أوقع رجل ظلماً ورأهما رجل ثالث يمر بالطريق كان أن يقتص لهذا الظلم وكأنه قريب للمظلوم. وإذا ما تم التثبت من قيام أحد بارتكاب جريمة السرقة لما يتعدى قيمته أربع دنانير فإما أن يقتل أو يشنق على عصا مسننة

٢٥ - وأخيراً، وفي وادى جيثمانية، شاهدنا أحجاراً مربعة من الرخام عالي الجودة إلى حد أنه يستطيع المرء أن يرى كل ما يتمناه فيه وكأنه ينظر في مرآة.

(۱۹) كان سيشار Sichard آخر أمير من بنفنتيو له نفوذ واسع، وقد تولى منصبه هذا عام ٨٣٢م. وقتل في عام ۸۳٩م.، وعين مكانه أمين الصندوق عند ركاليس Radelchis، في عام ٨٦٦م، أي قبل رحلة برنارد بفترة قصيرة، قبل ركاليس أن يخضع تحت حكم الامبراطور لويس الأول 1 Louis.

(۲۰) يبدو أن كلمة رومانيا هنا تعنى المنطقة المحيطة بروما مما يتنافى مع ما أورده ايفياني الراهب Epiphanius the Monk في قصيدته.